

المكتبة الثقافية
طه حسين
والبحث عن العدل الإجتماعى
أحمد عبد الرازق أبو العلا

(أنا حين أذيع فى الناس رأيا ، أو انشر فيهم كلاما لا أتحفظ ، ولا أعطى بيد لآخذ بالأخرى وانما أذيع مخلصا وأنزل للناس صادقا عن كل ما أنشر وما أذيع وأبيح لهم أن يأخذوا ، وأن يستغلوا بل أجد سعادة حين أراهم يأخذون ويستغلون ، وليس يقينى أن يقولوا اخذنا عن فلان واستغللنا مذهب فلان وانما يقينى أن اكون نافعا ، وانا أوثر أن انفعهم على غير علم من الناس) .

(د. طه حسين)

من حديث الشعر والنثر

مقدمة

عندما قال (جمال الدين الأفغانى) فى كتابه الخاطرات : « عليكم أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم » ص ٤٠١ .

لم يكن هذا بغريب عليه ، خاصة وأن مفهوم العدالة كان مطروحا فى تلك الفترة بشكل ملحوظ ، وأعنى فترة النهضة العربية الحديثة التى تبلورت معالمها عند رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى وغيرهما (القرن التاسع عشر) ومن المقرر ان (العدالة

والحرية كانا المطلبين الأكبرين لأعظم العقول الاجتماعية التى أظهرت الى النـــاس أفكارها منذ رفاعـــة رافع الطهطاوى الى الآن ، ولأنبل التصـــورات والحركات السياسية فى مشرقنا ومغربنا منذ الثورة العرابية وقبلها ثورة المصريين على الحمـــلة الفرنســـية ، حتى ثـــورة ٢٣ يوليو وما تلاها من ثورات وليدة أخذت مأخذها فى المشرق الى ثورة شعبى المغرب والجزائر على التواجد الأفرنجى الغريب) «١» .

واستمرت رحلة البحث عن معنى العدل فى القرن العشرين على أيدى مفـــكرين آخرين منهم (د. طه حسين) والذى حاول أن يضع مفهوما محددا لهـــذه القضية خاصة وأنه من هؤلاء المفكرين الذين يؤمنون بامكانية العقل وقدرته على التفكير ، الأمر الذى جعله موضعا للاتهام الدائم من قبل الذين يضعون قيودا على حرية التفكير ، وحرية النظر والطرح .

---

(١) العدالة والحرية فى فجر النهضـــة العربية الحديثة ـ د. عزت قرنى ـ عالم المعرفة ـ يونيو ١٩٨٠ م ـ العدد رقم ٣٠ ص ١٢ .

فهو متهم بالتشيع للحضـارة الغربيـة ، ومتهم بالتشيع للفكر الوثنى اليونانى حيث كتب عنه ، ومتهم بأنه كان عاملا مساعدا للغزو الفـكرى حتى أصبحنا تابعين للفكر الغربى ، واذا كان الأمر كذلك (فبمـاذا تتهم فلاسفة المسلمين وفى مقدمتهم ابن رشد وابن سينا والفارابى) ممن تأثروا بالفكر اليونانى وكان دورهم مزدوجا : (دور الرسول الحامل لأوربا رسالة اليونان ، ودور الفاعل بما ابتكر وأنتج ؟؟ هل تتهمهم بالترويج للفكر الوثنى أم ترانا نقول عنهم انهم كانوا يعبرون عن أشواق عصر واحتياجات حضـارة وقيم مجتمع وانهم أضـاءوا بفـكرهم ظـلام العصـور الوسـطى فى أوربا) «٢» ٠

والحديث عن العدل الاجتمـاعى عند طه حسين لايمكن أن ينفصل عن الحديث عن فكر الرجل بداية وتأثير ذلك الفكر على تناوله لهذه القضية فمما لاشك فيه أن الدكتور طه حسـين كان حريصـا ــ ومنـذ

(٢) طه حسين متهما أمام محاكم التفتيش ــ سامح كريم ، صحيفة الأهرام الصادرة فى ١٩٨٥/١٠/٢٥ م ٠

البداية — على أن يختط لنفسه طريقة للنظر لا تتفق والطرق الأخرى تستفيد منها نعم ، لكنها تقوم على ما يؤمن به فى البداية وما يقره عقله فى النهاية .

فمنهج « ديكارت » الفلسفى العلمى كان هو منهجه فى دراسة الشعر الجاهلى (الذى حاول أن يقدم قراءة تقترح اعادة بناء النص الأدبى العربى تأسيسا على محاولة نمذجة الكتابة الأدبية العربية وقياسها على الكتابة الأدبية ايمانا بالعلاقة التاريخية والثقافية التى تجمع بين الذات العربية — النص الأدبى العربى — وبين الغرب — النص الأوربى — بحيث كانت رؤية طه حسين الى العالم الذى يريد صياغته للفكر العربى ، أو لدولته **الثقافية منذ العشرينيات محكومة بالفرضية التالية :**

لما كانت أوربا قد استطاعت اعادة صياغة تاريخها وحضارتها اعتمادا على الحضارة الاغريقية والرومانية ، فلماذا لا نعتمد نفس الطريق وقد سلكته الحضارة العربية من قبل) ؟؟

وقضية العدل لم يتناولها د. طه حسين بمعزل

عن قضـية الحرية لأنه يؤمن بأن ثمـة ارتبـاط بين القضيتين ، فذلك المنهج الذى اتهجه يدعو الى العقل وتحرر الانسان ، ونحن فى هـذه الدراسة نركز على كيفية تناول الدكتور طه حسين لقضية العدل الاجتماعى وارتباطها بحرية الانسان من خلال كتابيه (المعذبون فى الأرض) والذى نشر فى لبنان عام « ١٩٤٩ م » بعد أن سحبت الحكومة نسخه من المطبعة بمصر ، أو كما يقول فى مقدمة الطبعة الثانية (صدر الأمر بأن يحـال بين هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخه من المطبعة حيث يصنع بها السلطان ما يشاء ، يحرقها أو يمزقها أو يغرقها وصودر فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصر المصريين بحقـائق أمورهم وتعظ منهم الطغاة والبغـاة وتعرى فيهم البائسـين واليائسين) و (ما وراء النهر) والتى نشرها عام « ١٩٦٤ م » فى أعداد مختلفة من مجلة الكاتب المصرى التى أصدرها طه حسين فى أكتوبر (١٩٤٥) .

ونحن نتناول هـذين العملين من زاويـة خدمة الهدف الذى سعينا منذ البدية الى توضيحه وبيانه ،

وهو : كيف كان طه حسين دائم البحث عن مفهوم محدد للعدل الاجتماعى منطلقا من التأكيد على حرية الانسان فى الفكر والعمل (ومع أهمية الدور الذى أدته أعمال طه حسين الابداعية مثل (دعاء الكروان ــ شجرة البؤس ــ الوعد الحق ــ المعذبون فى الأرض ــ ما وراء النهر) فى ابان ظهورها فى دعم مكانة الفن القصصى فى مجتمع كان ما يزال يشتمل فى تكوينه الثقافى على فئات تسىء النظر الى هذا الفن ، ومن ثم تسىء تقدير كتابه) «٣» .

الا اننا لا نتناولها من زاوية نقدية تنظر الى الجانب الابداعى فيها ، بقدر ما نتخذها وسيلة لتوضيح وجهة نظر أردناها من خلال تناولنا لذلك البحث عن العدل الاجتماعى الذى كان يضنى الدكتور طه حسين ، وتلك الحرية التى كان دائما ما يؤكد على حتمية وجودها

---

(٣) د. عز الدين اسماعيل ــ طه حسين وتجديد الذكرى للظاهرة التاريخية ــ صحيفة الأهرام الصادرة فى ١٩٨٣/١٢/٩ م .

والدفاع عنها فحين كتب عن الشاعر الفرنسى (بودلير)
طرح من خلال التناول السؤال التالى :

ـ هل يملك الفن هـذه الحريـة التى تبيح له
ألا يحفل الا بنفسه وبالجمال من حيث هو جمـال ،
سواء أوافق فى ذلك ما ألف الناس من أخلاق ونظام
ودين أو لم يوافقه ؟؟

يجيب :

المهم أن الأديب مهما يكن أمره ، كائن اجتمـاعى
لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقل بحياته الأدبيـة مهما
يكن أمره ولا يستقيم له أمر الا اذا اشتدت الصلة بينه
وبين الناس ، فكان صـدى لحياتهم وكانوا صـدى
لانتاجه وكان مرآة لمـا يذيع فيهم من رأى وخاطر ،
وما يغذوهم به من هـذه الآثار الأدبية على اختـلاف
ألوانها) «٤» .

---

(٤) د. طه حسين ـ فصـول فى الادب والنقـد ـ دار المعارف ـ مصر .

اذن فمن خلال حرية الكاتب فى التعبير يستطيع أن يضيف الى رصيد الخبرة الانسانية شيئا جديدا ، وهذا ما حاول الدكتور طه حسين أن يفعله فى زمن لم يكن يعترف بتلك الحريــة التى يؤكد على ضرورتهــا طه حسين ، ولا بذلك العدل الاجتماعى الذى يبحث عنه من أجل تحقق حرية الانسان فى الفكر والحياة .

منهج التفكير عند الدكتور طـه حسـين

(١)

قد تكثر النظريات التى يطرحها المفكرون ، فيكون فكرهم — ومن خلال هذه النظريات — نظريا فقط ، وللمفكر حرية أن يختار بلا جبر •

وطه حسين بوصفه مفكرا من مفـكرى العصر الحديث لم يترك أفكاره مجرد نظريـات تطرح لكى تضـاف الى مئـات النظريات الأخرى دونما ترجمـة أو تطبيق ، بل على العكس تماما ترجم الفكر النظرى

الى واقع عملى متواجد عندما دعى الى مجانية التعليم فأصبح (العلم كالمـاء والهواء حق للجميع) ومن هنا نجد ايمانه بأن (تغيير الأشياء لا يكون بالكلام الذى يقال عن اخلاص أو تكلف وعن تفكير واندفاع ، وانما يكون بالعمل الذى ينقل الأشياء من طور الى طور) .

فدعى الى نشر العــدل بين الجميــع وبحث عن وسائل تحقيق الكفاية لأبناء الشعب عندما كان وزيرا للمعارف ، وتحدث عن عذابات أبناء الشعب فى كتابه (المعذبون فى الأرض) .

ـ هذا الكتاب تمت مصادرته بعد طباعته لأنه حاول فيه أن يؤكد ايمانه بأن حرية التفكير لا تأتى هكذا وبلا ســابق انذار ، بل لابد أن تسبقها حريــة اقتصــادية .. والحرية الاقتصــادية لابد أن تسبقها الحرية السياســية فالحرية السياســية لديه لايمكن تحقيقها بدون حرية التفكير ، فحرية التفكير هى أساس الحريات .

ومن أجل هذه الفكرة ، اتهم بميله الى اليسارية

بعد صـــدور كتابه هذا الذى ضاق به جو مصر فنشره فى لبنان ، وأهــداه الى الذين يحرقهم الشــوق الى العدل ، والذين يؤرقهم الخـوف من العـدل ، والى الذين يجـدون ما لا ينفقـون والذين لا يجـدون ما ينفقون [1] •

وقد جاء فى كتابه (جنة الشوك) ما يدل على هـذا التسامح القـائم على احترام العقـل واحترام التفكير •

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ :

انى أقـرأ فى بعض ما يقول نيتشـه أن كثيرا من النـاس لا ينبغى أن تصافحهم بيد رقيقة ، وانما تبسط اليهم يدا كبرسن الأسد ، وأريد أن تكون فيها مخالب حادة •• فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس •

---

(1) مع طه حسين - سامى الكيالى - سلسلة اقرأ - ص ٨٤ •

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

هم أكثر الذين تلقاهم مصبحا وممسيا فيلحظونك بعيون ملؤها الود .. ويبسمون لك من ثغور مشرقة من ورائها الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون التودد اليك والتلطف لك ، ولا سيما حين تحدث الأحداث وتلم الخطوب ولكن نيتشه يابنى صاحب قسوة وسطوة وعنف فاقرأ أن شئت قول الله عز وجل « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » (١) .

وأجدنى وأنا أتحدث عن فكر طه حسين وطريقة تفكيره أطرح أسئلة عديدة على نفسى باحثا عن اجابة محددة لها ومركزة فى الوقت نفسه .

والأسئلة التى تطفو أمامى وأنا أتعرض لفكر الرجل هى تلك :

كيف تتحقق حرية التفكير فى بلد لا يؤمن بالفكر ولا بالمفكرين من أمثال د. طه حسين ، ولأنه يؤمن

(١) جنة الشوك ـ طه حسين ـ دار المعارف .

بحرية التفكير — كما سنرى — فقد تتعارض أفكاره — هـذه — مع الأحزاب السياسية الموجودة فى ذلك العصر ، فما هو موقف طه حسين منها ؟؟ وهل تركت هذه الأحزاب فى نفسه أثرا ؟ أو بمعنى آخر .. هل غيرت من طريقة تفكيره ؟؟ ولنبحث أولا : فى امكانية تحقق حرية التفكير فى بلد لايؤمن بالفكر ولابالمفكرين.

بداية أقول : أنه لابد أن يحدث الصـدام بين من لا يؤمن بالفكر وحرية التفكير ، ومن يؤمن بالفكر وحرية التفكير . لابد أن يحدث الصـدام بين (طه حسين) بوصفه مفكرا يبحث عن حرية التفكير من أجل تحقيق الحرية السياسـية والعدل الاجتمـاعى ، وبين السلطة بوصفها الشخص المعنوى الذى لا يؤمن بالفكر ولا بحرية التفكير طالمـا أن هذه الحرية سوف تؤرقه وتكشف اللثام عن وجهه الحقيقى الذى لا يعطى سوى الكراهية لأبناء الشعب المطحونين ، الباحثين عن لقمة العيش .

وقد تمثلت تلك المواجهـة فى أول الأمر ضـد الحكومة ، حكومة (حسين صدقى) عام ١٩٣٢ م تلك

الحكومة التى كانت تمثل ـــ فى ذلك الوقت ـــ السلطة الرأسمالية والاقطاع المستبد ، فلم يملك (اسماعيل صدقى) ـــ بوصفه ممثلا للسلطة ـــ الا أن يصـــدر قرارا بنقل (د. طه حسين) من الجامعـــة الى وزارة المعارف .. فيرفض (طه حســـين) بشـــدة ولم يجد صدقى فى النهاية الا أن يعزله نهائيا ولم تجعله هـــذه القرارات مهتزا أو أضعفت عزيمته بل على العكس من ذلك ، لم يجد أمامه الا أن يواجه السلطة الرأسمالية والاقطاع المستبد والممثلة فى حكومة اسماعيل صدقى اينما كانت ، مؤمنا فى داخله بحرية الفكر وحرية التعبير، فيكتب ويكتب لا يهاب الموت فى سبيل ما رسم لنفسه من مبادىء سامية حتى استطاع أن يعود الى الجامعة مرة أخرى عام ١٩٣٥ م .

هذا عن موقفه تجـــاه الســـلطة ، فما هو موقف الأحزاب السياسية (لقد كان طه حسين ـــ كعادته ـــ يخالف ما جرت عليه العادة ، ونراه فى حياته السياسية ينتقل من اليمين الى اليسار كلما تقدمت به السن وكلما نضجت التجربة . هـــذا اذا كان يصح أن نســـمى

« الأحرار الدستوريين » يمينا ، وأن نسمى الوفـد يسارا على نطاق السياسة المصرية) (١) .

وفى مطلع حياة (طه حسين) الثقافية انضم الى « حزب الأمة » .

(وعلى الرغم من رجعية هـذا الحزب وتمثيله لكبار الاقطاعيين فى مصر ممن عرفوا بأصحاب المصالح الحقيقية فان ارتباطه به لم يكن راجعـا الى التكوين الاجتماعى للحزب ، وانما كان راجعا الى تأثره بشخصية (لطفى السيد) أكبر رأس مفكر فى الحزب ، فضـلا عن حرصـه وهو طالب خارج من الأزهر على الآراء العصرية المتحررة فى الأدب والحياة) (٢) .

يتبقى من تلك الأسـئلة التى طرحتها على نفسى هذا السؤال :

---

(١) لمعى المطيعى ـ مجلة الثقافة المصرية ـ العدد رقم ٢/١٤ ص ٤٤ .

(٢) جلال العشرى ـ ثقافتنا بين الأصـالة والمعاصرة ـ الهيئة العامة للكتاب ص ١٢٣ .

— هل غيرت هذه الأحزاب من طريقة تفكيره ؟؟

نقول أن طه حسين كان يعرف كيف يكون الفكر حرا ، وكيف يكون التعبير حرا — كذلك — وايمانه بهذه الحرية جعله يواجه الهجوم الضارى الذى واجهه أثر صدور كتابه (فى الشعر الجاهلى) •

فحرية الرأى — لديه — لا تنفصل عن الحيـاة الصالحة فهى فى ضرورتها كالحرية السياسية وكالحرية الاجتماعية •

وطه حسـين يقرر أنه عندما تختلط حريـة الرأى بالسلطة السياسية بحيث تكون حرية التعبير هـذه مرتبطة بموافقة السلطة عليها ، والثناء على من يكتبون لتأييد السلطة السياسية ، عندئذ فان المؤرخين جميعـا ان كانوا خليقين بهذا الاسم يؤثرون أن يبيعوا الفول أو الكراث على أن يكونوا أدوات فى أيدى السياسـة يفسدون لها العلم والاخلاق) (٣) •

---

(٣) طه حسين — فى الأدب الجاهلى — دار المعارف — ص ٥٨ •

اذن يتضح لنا بعد آخر وهو : أن حرية التعبير لديه ــ عندما تأخذ شكلا أدبيا فلابد أن تنفصل ــ بالتالى ــ عن السلطة السياسية •

فالحرية لديه فى حاجة الى أن يدافع عنها أنصارها والعدل فى حاجة الى أن يدافع عنه أنصاره •

اذن فحرية الرأى قد دفعته الى المحافظة على كرامته كانسان مفكر (فقد حدث ، وهو عميد كلية الآداب عام ١٩٣٢ أن طلب اليه « اسماعيل صدقى باشا » رئيس الوزراء وهو حاكم شديد البطش والجبروت أن يمنح درجة الدكتوراه الفخرية الى غير واحد من السياسيين الممالئين لعهده وللملك بصورة خاصة • ويدرس طه حسين هؤلاء الناس ، فلا يجد واحدا منهم يستحق هذه الرتبة العلمية • فيقف من هذا المطلب موقفا صلبا أى لا يجمجم ولا يخنع ، فيرفض باباء ثم يذهب الى وزير المعارف (حلمى عيسى باشا) ويقول له بالحرف الواحد : ان الجامعة تعطى درجة الدكتوراه الفخرية بوحى من نفسها لا بوحى من

الحكومة ، وأنها لا تستطيع أن تمنح هـذه الدرجة لأفراد حزبيين) (1) .

والتاريخ الأدبى للدكتور طه حسين يكشف لنا أنه لولا التحالف بين الأحرار الدستوريين والوفـد لكان الهجوم على (طه حسين) قد اشتد وذره رغم وقوف حزب الوفد فى ذلك الوقت لمهاجمة آراء طه حسـين التحررية والثورية التى جاء بها فى كتاب (فى الشـعر الجاهلى) ، ولأن طه حسين مرتبط بأستاذه (أحمد لطفى السـيد) والذى كان تابعـا لحزب الأحـرار الدستوريين فانه انصرف عن (حزب الوفد) واتجه الى حزب الأحرار الدستوريين . ويعلل هـذا الانصراف نتيجة لموقف فكرى يتبناه ، ويشعر بأنه سـوف يتحقق لو أنه انضم الى حزب الأحرار — ويعلل رجاء النقاش هذا الانصراف بأنه نتاج أسـباب شخصية لا ترتبط بموقف فكرى « ولاشك أن هـذا الموقف من جانب طه حسين وفى التقييم السـياسى السليم كان موقفـا

---

(1) سامى الكيالى — مع طه حسين — دار المعارف — اقرأ — العدد رقم ٣٧٥ — ص ١٤٣ .

خاطئا ولابد من النظر اليه على أنه نقطة ضعف فى تاريخ طه حسين » (١) .

ورغم هذا ـ وعلى سبيل المثال وكدليل على فكره المتحرر ـ نراه يسخر بالعقلية الرجعية التى تحاول أن تبتعد عن أوربا فيقول :

(لو قال قائل : انا قد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا حرب الكر والفر وهذه العدة التى تنحصر فى السيف والرمح والقوس والسهم والورقة الدرع ، فلندع للأوربيين نظامهم الحربى وما استحدثوا من ألوان السلاح وأدوات التدمير ، ولنكتف بجيوش تشبه فى عددها جيش خالد بن الوليد أو جيش بيبرس لو قال قائل هذا الكلام للقيه المصريون جميعا بالضحك والسخرية والاستهزاء ، ولكان المحافظون وأنصار القديم أشد الناس التواء عليه وازورارا عنه) (٢) .

---

(١) رجاء النقاش ـ أدباء معاصرون .

(٢) سامى الكيالى ـ مع طه حسين ـ سلسلة اقرأ العدد ٣٧٥ ص ٧٩ .

(٢)

من أين أستقى (طه حسين) فكره ؟؟ أو بمعنى آخر ، ما هى العوامل التى عملت على بلورة طريقة التفكير لديه بشكل معين ؟؟

بداية نحب أن نحدد أن الدكتور (طه حسين) قد أستقى فكره القائم على حرية التفكير والتعبير — كما سبق أن بينا — من خلال عدة عوامل ومنابع شتى .

١ — اتصاله بلطفى السيد .

٢ — ذهابه الى باريس والتقاؤه بأدبائها وفنانيها .

٣ — تعرفه على خصائص المذهب العقلانى الذى استحدثه « ديكارت » .

والدكتور (طه حسين) كان يتخذ من المنهج العقلانى منهجا للتفكير هذا المنهج الذى يفرض على المفكر أن (يختبر الآراء السائدة سواء على المستوى الشعبى العادى أو فى الأوساط العلمية أو كليهما معا بذهن ناقد ، لا ينقاد وراء سلطة القدم أو الشهرة

ولا يقبل الا ما يبدو له مقنعا على أسس عقلية وعلمية سليمـة ولا يعنى ذلك أن يقف المرء موقف العـداء أو العناد المتعمد من كل ما هو شائع ، بل يعنى اختيار الآراء الشائعة واخضاعها للفحص العقلى الدقيق) (1) •

فهذا المنهج الذى يقوم على التنظيم والبحث عن الأسباب والشمولية واليقين والدقة والتجديد هو منهج طه حسين فى البحث والتفكير •

وهذا المنهج ــ يعد فى حد ذاته ــ تمهيدا للأفكار الاشتراكية التى أصبحت تيـارا من تيارات الثقافـة المعـاصرة •

ولقد كان الدكتور (طه حسين) مرتبطا بالفكر والسياسة معا شديد العلاقة بالأستاذ أحمد لطفى السيد مفكر حزب الأمة وأستاذ الأحرار الدستوريين ، فقد كان (لطفى السيد) مؤمنا بالقدرة العقلية أكثر من

---

(1) د. فؤاد زكريا ــ التفكير العلمى ــ عالم المعرفة ــ الكويت العدد ٣ ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ •

ايمانه بالقدرة العاطفية ، ومن هنـا التقى فكر د. طه حسين بفكر لطفى السيد الذى كان ينـادى بالمذهب العقلانى فى التفكير ، هذا المذهب الذى يقوم على تجرد المفكر من كل الأهواء الذاتية والشك فى كل الآراء المسبقة الموصـول الى يقين العقل ، وكذلك فانه يقوم على الربـط بين المعنى والشىء وقيمـة هـذا الشىء وفائدته .

بهذا المنهج الذى استحدثه (ديكارت) اسـتمد د. طه حسين أسس تفكيره العقلانى وشغف بفلسفة (ديكارت) وتأثر بها دون شك وتراه يقول :

(أريد أن أصطنع هـذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما) (١) .

---

(١) د. طه حسين ـ فى الأدب الجاهلى ـ دار المعارف .

وعندما تحدث د. طه حسين عن (ديكارت) فى كتابه (من بعيد) كان حديثه يوضح مذهب الشك واليقين ساخرا من شيوخ الأدب القديم وكانت سخريته تلك وليدة الضجة التى أثيرت حول كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى أراد منه أن يعالج الأدب القديم معالجة علمية ، باحثا عن حقيقة هذا الشعر القديم ، وحقيقة قائليه وحقيقة نسبته الى من نسب اليهم ، فكان يشك فى كل ما بين يديه من أجل الوصول الى حقيقة تتفق مع المنطق والعقل .

« والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر ، فقد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا وأنه قد جود العلم والفلسفة تجويدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء فى أدبهم ، والفنانين فى فنونهم ، وأنه هو الطبع الذى يتميز به هذا العصر الحديث » (1) .

وبجانب المنهج الديكارتى هذا ، والذى اتخذه

---

(1) المرجع السابق .

(د. طه حسين) سبيلا لتفكيره نجده يختلط بأدب فرنسا ، فأحب الشاعر الفرنسى (بول فاليرى) لأنه يحترم العقل ، وقرأ قصص (فولتير) وأحبها وتعرض لأدب (مدموازيل دى لسبيناس) وقرأ (سـارتر) وناقش أدبه ومما لاشك فيه أنه تأثر بكل هـذا فى كتاباته الأدبية على وجه التحديد :

(الحب الضـائع) (دعـاء الكروان) حتى أن منهجـه التاريخى فى النقد قد استمده من أصـول المدرسة الفرنسية التى تزعمها الناقد : (هبوليت تين) وحرص فيها على تعريف الأوربيين بعلم التاريخ وعلاقته بالحياة الاجتماعية ، ومؤدى نظريته أن الانسان من صنع الوراثة والبيئة ويحدد طه حسين أن هناك فريقين أحدهما يرى أنه لابد أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعا للحرية ، لا متبوعا ، والفريق الآخر يريد أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية ناقلة تتحقق ان سمح العدل بتحقيقها ، ويضحى بها اذا لم يكن بد من التضحيـة بها فى سبيل العدل الشـامل والمساواة الكاملة بين الناس .

ويبقى الصراع ـ كما يحدده طه حسين ـ قائما بين الحرية والعدل ويبقى صراع الانسان وصراع الأمم والشعوب بين أيهما يختار .

ـ ولكن ما هى وجهة نظر الدكتور العميد فى هذه المسألة ؟؟ وهل حدد لنفسه اختيارا بين المذهبين ؟؟

ـ لم يضع الدكتور طه حسين رأيا محددا فى هذه المسألة حتى أنه عندما كتب (المعذبون فى الأرض) وتحدث عن شـوق هؤلاء الى العدل وحاجتهم الى الحرية ، لم يبحث عن البديل ولم يوضح الوسـائل ـ كمفكر ـ التى عن طريقها ، ومن خلالها يستطيع هؤلاء القوم الذين (يحرقهم الشوق الى العدل) أن يجدوا العدل الذى يبحثون عنه لا بالقول ، وهـذا فى رأيى هو الخطـأ الذى وقع فيه د. طه حسين حين تحول الى مرحلة أخرى ، هى مرحلة التنظير فى الأدب . حاول أن يجمع بين المذهبين عندما يحدد أن هنـاك « فرقا خطيرا جدا بين الاستمتاع بالحرية والاستمتاع بالعدل ، فالاستمتاع بالحرية يثير هـذه اللذة المتعبة

لأنه يدفع الى العمل والنشاط ويغرى بالكد والجد ، ويمنع الانسان من أن يريح ويستريح أما الاستمتاع بالعدل فمريح حقا ، لأنه يقتل الطمع ويغرى بالرضا ويزين القناعة فى القلوب أو قل يفرض القناعة على القلوب ، فأى غرابة فى أن يكون أشد ايثارا للحرية التى تملؤه قوة ونشاطا وتدفعه الى الأمل والعمل ، وتمسكه فى هذا القلق الحلو المتصل الذى لا يعرف الرضا ولا يحب الاطمئنان منه للعدل الذى لا يثير قوة ولا نشاطا ، ولا يدفع الى مزيد من أمل أو عمل »[1] . بالشك فيما هو قائم للوصول الى يقين أكيد يحكمه العقل ولأنه يشجع هذا فهو (يطالب أن تكون تلك المفاهيم عن الحرية والعدالة والديمقراطية من الأهمية بمكان حتى لا يصح أن يعيش الانسان بدونها والا فلا فائدة للعقل ان لم يفكر ، ولا فائدة من التفكير ان لم يقم على أسس علمية منطقية ، ومن خلال تفكيره هذا أخذت الأسئلة تلح عليه بالاجابة وعندما

(1) المرجع السابق .

تطفو على السطح أمامه يتناولها بالبحث والتمحيص حتى يصل الى شيء محدد يقره عقله ويؤيده تفكيره .

ـ تساءل أيمضى العالم الى تحقيق العدل أم الى تحقيق الحرية ولماذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر على فريق آخر ؟؟ لماذا يفرق بين الناس فى الاستمتاع بالحياة على حين يسوى بينهم فى الدخول الى الحياة والخروج منها ؟؟

ويعمل د. طه حسين تفكيره فى هذه الأسئلة المطروحة أمامه لكى يجد اجابة تعفيه عناء التفكير فيحدد أنه « من الخطأ أن تظن أن هذا الصراع بين العدل والحرية مقصور على بيئة انسانية دون بيئة أخرى أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان وانما الواقع الذى نستطيع فى كل وقت أن نلاحظه هو أن هذا الصراع قائم فى البيئات الانسانية المثقفة كلها وفى أجزاء العالم المتحضر كلها أيضا ، يقوى ويعنف حيث ترقى الحضارة وتتفوق ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة ، وتميل الى الخمود ولكنه موجود

دائما ومتصــل على كل حال . ويكفي أن ننظر الى العــالم الذى نعيش فيه اليوم لنتبين أن الصراع بين الحرية والعدل عنيف الى أقصى غايات العنف » (1) .

وبذلك يكون الفن صورة للفرد وليس تصــويرا للذات وانما هو ــ في حقيقته ــ تعبير عن الجنس ، وعن الزمن . ، وعن المكان .

ــ ومن هنا انطلق (طه حسين) بمنهجه التاريخي القائم على هــذه العناصر الثلاثة : الجنس والبيئــة والعصر . والذى لا يعنى بالأدب لا من حيث هــو مرآة للمجتمع ، ولا يهتم بالشاعر وحياته الا بالقدر اللازم لفهم شعره . فالانسان بمواهبه ومعنوياته ان هو الا أثر من آثار البيئة بمعناها الواســع لا يكاد يفترق عن الحيــوان والنبــات من انتفــاء الفكر وانعدام الارادة (2) .

---

(1) د. طه حسين ــ ألوان ــ دار المعارف .

(1) جلال العشرى ــ ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة ص ١٦ .

من خلال طريقة تفكير طه حسين المعتمدة ــ كما تبين لنا ــ على المنهج العقلانى والمنهج الديكارتى ، من خلال هــذه الطريقة العلمية فى التفكير هل كانت لطه حسين آراء محــددة حول الحرية .. العــدل .. الديمقراطية بما تشكله من أهمية خاصــة حول بنــاء فكر مستنير قائم على العقل ؟؟ ، من الواضح أن الدكتور كان منشغلا أشد ما يكون الانشغال بمثل هذه المعانى ، لمــا وجده من أهميتها فى تشــكيل العقلية المعاصرة ، وتشكيل الفكر القائم على أسس علميــة لا مجرد أن يضع مفاهيم الأشــياء ، ولا شىء غير هــذا ، وانما ليجعلها ســلوكا يعتاده الناس فى حياتهم ومعيشتهم ، ولأنه يشجع العقل على التفكير ، ويطالب به ــ ولكن هل للحرية صلة بالديمقراطية ــ أو العكس ــ فى مفهوم طه حسين ؟؟

كان طه حسين يؤمن أشــد ما يكون الايمــان بالديمقراطية واشترط أن تتوسع فى معناها متجــاوزين بها حدودها السياسية التى ترسم لها فى كتب السياسة

والقانون ، وتصبح حرية الكلمة والتعبير هى المقدمة الأولى لفهم معنى الديمقراطية ، وممارستها ممارسة فعلية ، فهو يؤمن بان الديكتاتورية لا تعرف حدودا للتسلط والاستبداد وانما تتدخل فى كل شيء وتفرض نفسها على كل شيء ، وهذا ما حدده بنفسه عندما تعرض بالمناقشة لكتاب (جان بول سارتر) « ما الأدب » ، وحدد فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) أنه (ليس يكفى أن يكون الفرد قادرا على أن يتنفس ويتحرك ليس غير ، وليس يكفى اذا بلغ الفرد طورا من أطوار الحياة المادية ، أن يقف عنده ولا يعدوه حتى يموت دائما يجب أن تمكنه الديمقراطية من أن يحوزه الى طور آخر خير منه) •

ـ فهو يبحث عن الحرية بنوعيها : الداخلية والخارجية •

فالحرية الداخلية قوامها النظام الديمقراطى ، والحرية الخارجية •• (قوامها الاستقلال الصحيح والقوة التى تحيط هذا الاستقلال) وكعادة د• طه

حسين فى طرح الأسئلة على نفسه باحثا عن اجابة من خـلال التفـكير السليم فانه يطرح هـذا السـؤال « ما هذه الحرية المطلقة التى يستمتع بها هـذا العقل اذا فكر ، وما هذا العجز المطلق الذى يضطر العقل اليه اذا أراد أن يعمل أو يدفع الى عمل (١) ومن خـلال هذا السؤال المطروح ، نعرف أن طه حسـين يرفض قدرة العقل المطلقة مؤكدا أن هناك عوامل أخرى تسير على التوازى مع العقل ولا تنفصل عنه وهـذه العوامل تتمثل فى الادراك والعاطفة والشعور » .

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه ــ طه حسين ــ دار المعارف ــ القاهرة .

(المعذبون فى الأرض)
والســؤال

ايمضى العــالم الى تحقيق العــدل أم الى تحقيق الحريــة ؟؟

أيمضى العالم الى تحقيق العــدل أم الى تحقيق الحرية ؟؟ ولمــاذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر على فريق آخر ؟؟ لمــاذا يفرق بين الناس فى الاستمتاع بالحياة على حين يسوى بينهم فى الدخول الى الحيــاة والخروج منها ؟؟

أسئلة طرحهــا الدكتور العميد على نفســه قبل أن يطرحها على قارئه •• طرحها من أجل أن يعمل فيها

عقله ويشغل بها تفكيره حتى يصل الى الحقيقة التى يقرها عقـله الذى يحترمه أشـد ما يكون الاحترام فيحدد أنه (من الخطـأ) أن تظن أن هذا الصراع بين العدل والحرية مقصـور على بيئة انسانية دون بيئة أخرى أو على مكان فى العالم المتحضر دون مكان ، وانما الواقع الذى نستطيع أن نلاحظه فى كل وقت هو أن هذا الصراع قائم فى البيئات الانسانية المثقفة كلها ، وفى أجزاء العـالم المتحضر كلها ، أيضا ، يقوى ويعنف حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة وتميل الى الخمود ، ولكنه موجود دائما ومتصـل على كل حال ، ويكفى أن ننظر الى العالم المتحضر الذى نعيش فيه اليوم لنتبين أن الصراع بين الحرية والعدل عنيف الى أقصى غايات العنف (١) .

ويحدد (طه حسين) أن هنـاك فريقين أحدهما يرى أنه لابد أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعا للحرية لا متبوعا والفريق الآخر يريد أن

(١) د. طه حسين ــ ألوان ــ دار المعارف ص ٢٣٥ .

يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية ناقلة ، تتحقق ان سمح العدل بتحقيقها ويضحى بها اذا لم يكن بد من التضحية بها فى سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس ، ويظل الصراع كما يحدده (طه حسين) قائما بين الحرية والعدل .. ويبقى الانسان وصراع الأمم والشعوب بين أيهما يختار .

وقد يتساءل القارىء .. ما الذى يجعلنى أقدم هذه القضية بداية لما أكتبه عن كتاب (المعذبون فى الأرض) أقول السبب هو هذا السؤال الذى طرح نفسه أمامى بعد ما انتهيت من قراءة هذا الكتاب والسؤال هو : ما هى وجهة نظر « د. طه حسين » فى هذه القضية ؟ وهل حدد لنفسه اختيارا بين الطريقين : الحرية والعدل ؟؟

أقول — وربما أكون مخطئا فى القول — ولكنها الحقيقة التى فرضت نفسها على وأنا أتعرض لهذه القضية بالدراسة والبحث ، ان (طه حسين) لم يضع رأيا محددا فى هذه المسألة حتى فى كتابه هذا الذى

أهداه الى الذين يحرقهم الشـوق الى العدل والذين يؤرقهم الخـوف من العـدل والى الذين يجـدون ما ينفقون والذين لا يجدون ما ينفقون .. تحدث عن شوق هؤلاء البؤسـاء فى الأرض الى العدل ، وحاجة هؤلاء ـ كذلك ـ الى الحرية ، ولم يبحث عن البديل ولم يضـع الوسائل ـ كمفكر ـ والتى عن طريقهـا ، ومن خلالها يستطيع هؤلاء القوم الذين (يحرقهم الشوق الى العـدل) ان يجدوا العـدل الذى يبحثون عنه لا بالقول ، لكن بالفعل ، ففرق كبير بين العمل بالقول ، والعمل بالفعل ، وهذا ـ فى رأيى ـ هو الخطـأ الذى وقع فيه الدكتور العميد ، حين تحول الى التنظير بدلا من الدعوة الى الفعل الايجابى الذى يستوجبه الشوق الى العدل والبحث عن الحرية فى عهد ضاع فيه العدل ، وتاهت الحرية .. هو يحاول أن يجمع بين الطريقين : طريق العدل وطريق الحرية عندما يحدد أن هنـاك (فرقا خطيرا جدا بين الاستمتاع بالحرية ، والاستمتاع بالعدل فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة ، لأنه يدفع الى العمل والنشاط ، ويغرى بالكد والجد ،

ويمنع الانسان من أن يريح ويستريح أما الاستمتاع بالعدل فمريح حقا ، لأنه يقتل الطمع ويغرى بالرضا ، ويزين بالقناعة فى القلوب ، أو قل يفرض القناعة على القلوب فرضا فأى غرابة فى أن يكون أشد ايثارا للحرية التى تملؤه قوة ونشاطا وتدفعه الى الأمل والعمل ، وتمسكه فى هذا القلق الحلو المتصل الذى لا يعرف الرضا ولا يحب الاطمئنان ، منه الى العدل الذى لا يثير قوة ولا نشاطا ، ولا يدفع الى مزيد من أمل أو عمل .

ولكن كيف تناول (د. طه حسين) هذه القضية فى كتابه « المعذبون فى الأرض » ؟؟ والذى اتهم بسببه بالشيوعية ، وظلت هذه التهمة لصيقة به حتى رفضها (مصطفى النحاس) وعين وزيرا للمعارف وتم نشر الكتاب فى مصر بعد أن تم نشره فى بيروت على أثر مصادرته فى (ادارة المطبوعات) فهو فى هذا الكتاب وتحت عنوان (خطر) يقرر أنه لابد (أن نعيد النظر فى نظامنا الاجتماعى كله ، فيما تجبى الدولة من الضرائب وفيما تمنح الدولة من المرتبات) .

اذن فلكى يتحقق العدل أو الحد الأدنى منه لابد من شيئين يتم تحقيقهما :

الشىء الأول : مضاعفة الضرائب على الأغنياء .

الشىء الثانى : مضاعفة المرتبات التى تمنح للموظفين .

بهذين الشيئين نواجه (الخطر) الذى يحدق بالموظفين العاملين فى الحكومة بعد ما ضرب لنا مثلا بالموظف الذى يعول أربعة عشر شخصا ومرتبه اثنى عشر جنيها (فهو يستدين من جهة حتى لا يجد الى الاستدانة سبيلا ، وهو يلتمس الاحسان من كل طريق فلا يظفر بما يلتمس من الاحسان فليس أمامه الا أن يقترف الاثم ليعيش ، وقد تكون الحاجة الى الغذاء والكساء أقوى من خلقه ودينه فيقترف الاثم ، ولكن القانون له بالمرصاد ، فهو ان فعل تعرض للعقوبة وتعرضت أسرته لبؤس تضاعفه الظروف اضعافا . واذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع ولا يكسو العارى ولا يسكت الصبى الذى يصيح

ملتمسا طعامه حين يعضه الجوع ولا يداوى المريض ، ولا يغنى عن الذين انتهوا الى الدرك الأسفل من الحرمان شيئا) .

هو هنا يصرح بشيء يحسبه المتعصبون خروجا على الدين الذى دعا الى الصبر حتى يأتى الفرج ، ويحسبه هو حجة هزيلة لا يتمسك بها سوى الضعفاء فتضيع حقوقهم ويأتى الخطر الذى لا راد له .

هذا مفهوم ثورى لابد أن نحسبه للرجل ، حتى نستطيع أن نحدد فيما بعد اجابة السؤال الذى يطرحه هذا الكتاب — الذى صدر قبل ثورة ٢٣ يوليو والأوضاع فى مصر كانت أشد ما تكون من القهر والظلم والاستبداد والبؤس — والسؤال هو :

هل يعتبر هذا الكتاب تصورا ثوريا لانفعالات مجتمع ما قبل الثورة ؟؟ وهل يعتبر د. طه حسين — ومن خلال هذا الكتاب كذلك — صاحب فكر ثورى اشتراكى ؟؟

ان هذا المفهوم الثورى عن (الصبر) والذى

حدده طه حسين لم يتحدد هكذا من فراغ ، بل بعد ما تبين أن هـذا الاستسلام ، وهذا التعلق الغير حقيقى بهذه الكلمة فى موضـع ليست فيه بذات نفع بعد كل هذا حدد أن هذا الاستسلام القهرى هو سبب الشقاء والشقاء يجلب من المفاسد والآفات ما يجعلنـا نبحث عن طريق للخلاص منه وعدم التعرض له ، بجلب البدائل وتنميـة الأسـباب التى تسـاعد على البقـاء .. (فانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشـار الذلة والمسكنة والهوان ، وانتشار الاذعان للظلم والاستسلام للعسف والانقيـاد للاسـتبداد بالحريـة والكرامة ، والازدراء لكل ما يجعل الانسـان انسانا فضـلا عن الازدراء لكل ما يجعل الانسان انسانا متحضرا ممتازا . كل هذه الآفات والمخازى ليس لها مصدر الا هـذا الشقاء) ص ١٥٤ .

ونظن أنه بعد كل هذا ، لابد أن نتيقن أن الرجل على حـق فى مفهومه الثورى عن الصبر ، فطالمـا أن الصبر ــ فى هذه الحالة ــ يؤدى الى المفاسد ، وطالمـا يتخذه القوم (شماعة) يعلقون عليها مفاسدهم وآفاتهم

فالثورة عليه أمر واجب والا مازال الخطر .. ولرأينا (موظفى الحكومة يطلبون الصدقة ويلتمسون الاحسان) . ونحن نجد أن الطبقة البورجوازية — فى تلك الفترة — كانت فى بدء التكوين وكانت مهدرة الحقوق .. مهانة .. وان دل ذلك على شىء فانما يدل على وجود طبقة أخرى أشد قهرا وتسلطا ، وهى طبقة الاقطاع وعندما نحدد أن الطبقة البرجوازية تعانى ما تعانيه فى بداية التكوين فما بالك بالطبقة الدنيا والتى كانت سائدة وتمثل السواد الأعظم من المصريين . مجتمع طبقى أزعج د. طه حسين المفكر والأديب فجعله يقف محذرا أنه ليس (الى الاصلاح الاجتماعى من سبيل الا اذا وجدت الأداة السياسية الصالحة التى تستطيع أن تنهض بعبئه وتنقذه من مشكلاته) ثم يطرح سؤاله (فهل ترى أن مصر تملك فى هذه الأيام أداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الاصلاح ؟؟) ص ١٥٦ .

يطرح (د. طه حسين) هذا السؤال ولا يجيب عليه لأنه يعلم أن القارىء يعرف أن العكس صحيح .

وهو بهذا الأمر يعطى مفهوما ثوريا آخر وهو ضرورة صلاحية السلطة السياسـية حتى يحدث الاصـلاح ، وهذا المفهوم أو هذه الرغبة فى حد ذاتها تعد تمهيـدا لفعل ثورى تحقق فيما بعد بثورة ٢٣ يوليـو ، ولكن الخطر الذى أجد أن أستاذنا العميد قد بينه فى المقال السابق من هذا الكتاب والذى يحمل نفس الكلمـة عنوانا له ، قد قل تأثيره فيما بعد عندما أراد أن يأتى بنماذج تطبيقية تؤكد على ضرورة مساعدة الأغنيـاء للفقراء •• وأجد أنه بهذا التأكيد لا يعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات ، بالقـدر الذى يعمـل به على تثبيت وضعية هذه الطبقات ، وبعد أن يأخذ كل ذى حق حقه •

ولم أكن أطالبه بالعمل على ازالة هـذه الطبقية والدعوة الى المساواة فهو أمر كان من الصعوبة بمكان أن يتحقق فى واقع تتحـكم فيه طبقة الاقطـاع •• ولو كان قد فعل هذا لأصبح ثوريا بكل ما تحمله هذه الكلمـة من معنى •• ولأصبح بطلا من هؤلاء الذين يتخذون رمزا للبطولة •• وهناك فرق — بالطبع — بين

الرجل الذى يحول مفاهيمه الى فعل ثورى ، ويصبح بطلا ثوريا ، وبين الرجل الذى يضـــع هـــذه المفاهيم للتغيير ، لكنه ــ فى نفس الوقت ــ ليس مطالبـــا بأن يقوم بالفعل الثورى فيصبح مفـــكرا يحمل المفـــاهيم الثورية التى تعمل على التغيير ولو بعد حين •

وهذا هو موضع (طه حسين) بين النمطين ، ولكن المـــأخذ الذى نأخـــذه عليـــه ــ بعد التحفظ الذى حددناه ــ هو أنه كان عليه أن يقيم تلك الطبقة الدنيا ، باحثا عن حقوقها ، عن العدل الذى تريده والحريـــة التى تبحث عنها ، من خلال المفهوم الذى قمنا بتحديده من قبل ، وهو أن هـــذه الطبقة الدنيا قد أسرفت فى الوجود فأصبحت لاسرافهـــا هـــذا وكأنهـــا ليست موجودة •• مهملة كان عليه أن يدعم موقفهـــا حتى تسود ، لا أن تصبح تابعة للطبقة العليا التى تمن عليها بما تعتبره صدقة واحسانا !!

فى المقال الثامن الذى يحمل عنوان (تضـــامن) يضع د• طه حسين المفاهيم الأولى للفكر الاشتراكى حلا

يجلب المساواة والعدالة محددا أن (الله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق ، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة ، والله لم يجر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منهـا جماعات من الناس وتظمـأ اليها جماعات أخرى والله كذلك لم يخرج النبـات من الأرض ليشـبع منه قوم ويجوع آخرون) .

ويقرر أن الكل يتساوى أمام الطبيعة (لقد اسبغ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعا) فهو يقرر ــ هنا ــ مبدأ للاشتراكية أقره الاســلام وهو تمتع الكل بالخير المعطى أو بمعنى آخـر أكثر تحـديدا « العـدالة فى التوزيع » ويضرب مثلا لتأكيد هذا التضامن عندما يذكر عام الرمادة ، مؤكدا به أن التضامن الاجتماعى سبيل من سبل الاصلاح ، ويضرب مثلا للحـاكم الذى يطبق هذا التضامن على نفسه قبل أن يطبقه على الرعية « عمر بن الخطـاب » رضى الله عنه (رأى المسلمين لا يجدون السمن الا فى مشقة وجهد ، فحرم على نفسه

السمن حتى تجده عامة الناس وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف فلما ثقل عليه الزيت ظن أنه ان طبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا فأمر أن يطبخ له بالزيت ، وأكله مطبوخا فكان أوجع له وأعسر هضما حتى تغير لونه وأسود وجهه وكان شديد البياض ، ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم الى هذه الموائد يأكل مما يأكلون منه) ص ١٦٠ •

وكأنى بالدكتور العميد يريد أن يقول أنه لابد أن يعيش الحاكم معيشة قومه لا يترف وهم لا يترفون ، يجد ما ينفق وفى نفس الوقت هنـاك قوم لا يجـدون ما ينفقون •• هى عدالة الاسـلام اذن •• (فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسـوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون ويكتسى العارون من المعسرين وعلى الدولة أن تقوم على هـذا كله بسلطان القانون) •

فهو هنا يؤكد شـيئا جديدا يضـاف الى جملة الأشياء التى تضاف الى مفاهيمـه المحددة ، وهو أنه

لكى يوجد العدل لابد أن توجد القوة ، والقوة — عنده — ليست قوة السلاح أو العنف ، ولكنها قوة القانون ، الذى لابد له أن ينصف الفقراء فانه (من الحق على الدولة أن تعلم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون اذا لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس) ص ١٦٤ .

ود. طه حسين عندما يدعو الى هذا التضامن الاجتماعى نراه وكأنه يعلم أن هناك من يدبرون له المكائد ، وسوف يتهمونه بالالحاد ، والشيوعية ومن أجل أن يقطع عليهم ظنهم هذا ويكشف سوء نيتهم تلك فانه يقرر أن هذا التضامن الاجتماعى الذى ينبغى أن يوجد (لا يقوم على الاشتراكية ولا على الشيوعية) وانما يقوم على قول الله عز وجل « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

ويضرب مثلا آخر لهذا التضامن الاجتماعى فى مقاله (التاسع) الذى كتبه تحت عنوان (ثقل الغنى)

والذى يتعرض فيه لشخصية اسلامية أخرى ولكنها شخصية ذات غنى ومال .. وهذه الشخصية هى عبد الرحمن بن عوف الذى كان يقول قوله الشهير (لقد رأيتنى وما أرفع حجرا الا ظننت أنى سأجد ذهبا أو فضة) وعلى الرغم من هذا فقد كان (من أكبر المسلمين تصدقا ، ومن اسخاهم بماله ومن أوصلهم للرحم ومن أبرهم بالناس . أنفق حياته كلها مستثمرا لماله متصدقا به وكان تصدقه لا ينقص من ماله وانما يزيد فيه ويضاعفه اضعافا كأنما قضى الله ألا يجزيه عن صدقته فى الآخرة وحدها والا يضاعف فرصة فى الجنة وحدها وانما يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعا) ص ١٧١ .

ومن خلال هذه الشخصية الاسلامية السخية يوجه الدعوة الى أغنياء مصر للنظر الى ما حولهم من يأس وشقاء ، مؤكدا على وجود هذا التضامن الاجتماعى الذى لا ينطلق من أيديولوجية معينة بقدر ما ينطلق أساسا من ذلك المفهوم الذى حدده الدين (فلينظر

أغنياؤنا الى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا فى أن أموالهم عارية مردودة ، وفى أن الذين يقرضون الله قرضا حسنا يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفى أن الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قد بشروا بعذاب أليم) .

اذن فالدكتور طه حسين ، يؤكد مفاهيمه تلك من منطلق دينى وليس من منطلق ايمانه بأيديولوجية معينة ، الأمر الذى يجعلنا نرد على هؤلاء الذين يوصمونه بوصمة الالحاد والشيوعية وهو بعيد عنها كل البعد .. والا ما هو الداعى الى استشهاده من حين الى حين بآية أو أكثر من آيات كتاب الله « القرآن الكريم » ؟؟

ويستمر الدكتور طه حسين فى ضرب الأمثلة التى تؤكد على ضرورة التضامن الاجتماعى ، منطلقا أيضا من الجانب الدينى فيتحدث فى مقاله العاشر وتحت عنوان (سخاء) عن شخصيتين من شخصيات الاسلام وهما « عثمان بن عفان » و « طلحة بن عبد الله » .

فعن « عثمان بن عفان » يتحدث عن تلك الفترة التى أجدب فيها أهل المدينة أيام أبى بكر (حتى ارتفعت الأسعار ولم يجد الفقراء وأوساط النـاس ما يأكلون وأقبلت فى أثناء ذلك بعير لعثمان تحمل من الشام خيرا كثيرا ، فأسرع التجـار اليه يريدون أن يشتروا منه بضاعته ليسروا بهـا على الناس وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل أربعة أضعاف أثمانها ، ولكنـه أبى الا أن اسـتطاعوا أن يدفعوا اليه عشرة أمثـال أثمانها فلما أظهروا العجز أنبأهم بان الله قد وعده عشرة أمثالها ان تصـدق بها ، ثم أعلن اليهم أنه يؤثر هـذه التجارة على تجارتهم ويؤثر ثواب الله على أموالهم . وأن بضاعته هذه صدقة للمسلمين) ص ١٨٠ .

ثم يتحدث عن الشخصية الاسـلامية الثانيـة (طلحة بن عبد الله رحمه الله) وقد دخلت عليه امرأته فرأته مغتما فلما سألته عن ذلك ، رفيقة به ، عطوفا عليه ، أنبأها أن قد جاءه مال كثير فهو مهتم لا يدرى ما يصنع، فلم تزد امرأته على أن قالت له مبتسمة اقسمه ، قال

نعم ، ثم قسم هذا المـال بين ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجـة من المسلمين وأستقبل بعد ذلك ليله سـعيدا ، وكان هـذا المـال أربعمائـة ألف درهم) ص ١٨٠ .

من كل هذا ، وبعد أن أستحضر الدكتور العميد بعض الشخصيات الاسـلامية من التاريخ لكى يؤكد على ضرورة وجود مبدأ (التضامن الاجتماعى) وتطبيقه بعد ما تعرض لبعض النماذج العامة الفقيرة مؤكدا ـ من خلال هذا الاستحضار ـ التاريخى ـ على ضرورة ، (الغاء المسافات والآماد بين الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء ، وبين الأصحاء والمرضى) وهـذا مبدأ آخر يضيفه (طه حسين) الى مبادئه السابقة والتى تعرفنـا عليهـا ـ وهو مبـدأ المسـاواة بين الجميـع ولكن هناك ـ وبعد كل هذا جانب سلبى من الكاتب ـ هذا الجانب يكمن خطره فى اضعاف موقفه ـ ككاتب ـ له فكر ومبدأ وهذا الجانب الذى أعتبره سلبيا هو محاولة الهروب من مواجهـة هـذا العصر ، الذى لا سخاء فيه ، (طه حسين) يدعو بعد أن حدد لنا تلك المفاهيم

الثورية والمبادىء الاسـلامية التى تدعو الى العدل والمساواة •• بعد أن حدد لنا هـذا ودعانا الى البحث عن الطريق الذى يوصل الى كل هذا من أجل ازالة الخطر ، نراه يدعونا الى الهرب ، بل الفرار بمعنـاه المعنوى •• يقول فى ذلك : (صدقنى ان الخير كل الخير للرجل الأريب ، أن يفر بقلبه وعقله وضميره من هذا الجيل ، فان أعجزه الفرار الى بلاد أخرى ، فلا أقل من أن يفر الى زمان آخر من أزمنة التاريخ •• هـذا هو الموقف !! أين القدرة على المواجهة ؟؟ أين هـذا الموقف أين الحل ؟؟ •• ولكن هذا الموقف قد يدعونا الى البحث عن تبرير قد يميل الى الصـواب وقـد يميل الى الخطأ ، ولكنه على أى حال تبرير نضعه حتى لا نظلم أستاذنا العميد •• قد يكون هـذا دليلا على أن الاناء قد امتلأ الى الحافة فسال وطفح ما به فجـاء هذا الخاطر تعبيرا عن شدة السخط والغضب •• وقد يكون تعبيرا عن لحظـة ارتخاء ما بينه وبين السـلطة الحاكمة تعفيه شر السؤال ، تدفعه ـ تلك اللحظة ـ بعد ذلك الى المقاومة من جديد ، ولا أقصـد أن الرجل

كان مستأنسا ولكن أقول أن موقفه هـذا غير واضح ، فهل يعقل أن يقول مثل هـذا الكلام فى نفس الوقت الذى نادى فيه أستاذه (لطفى السيد) بشعاره المعروف (مصر للمصريين) !! بالطبع لا .

هو الذى نـادى من قبل بمجانيـة التعـليم ، لاحساسه أن الشعب يستطيع أن يتخلص من بؤسـه وفقره ، سـواء أكان الفقر ماديا أو معنويا ، يتمثـل فى فقر الروح ، والخواء العقلى ، أهى لحظـة يأس انتابت د. طه حسـين ؟ أظن أن الاجابة هنـا بالنفى واجبة . لمـاذا ؟ لأنه ينهى كتابه بدعاء الله أن يجنبه اليأس ويعصمه من القنوط (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) .

وعلى الرغم من هذا ، فان التبرير الذى أضعه هنا ــ وهو ليس يقينا ولكنه استنتاج ، جاء تعبيرا عن حـالة اليأس التى انتابتـه بعد ما تعرض لكل هـذه المـآسى والفواجع التى يعيشها الشعب المصرى ولم يلقى فى النهـاية الا العسف والاستنكار من جـانب

السلطة التى اتهمته ــ كما ذكرت آنفا ــ بالشيوعية .
حتى أنه وصل الى القصر الملكى فأيده الملك (فاروق)
ولكن (مصطفى النحــاس) استنكر هــذا الأمر .
بل وقام بتعيين طه حسين وزيرا للمعارف بعد أن تم نشر
الكتاب فى مصر وكان ذلك فى أواخر « ١٩٤٩ » ومارس
عمله هــذا لكى يحقق رسالته التى من أجلها جــاء ،
ورسالته تهدف الى تحقيق الحرية التى نادى بها لأبناء
وطنه ، فهو يصرخ من الأعماق هذه الصرخة المدوية فى
آذان الذين يلتمسون لوطنهم الحرية فيقول لهم (يجب
عليكم قبل كل شىء أن تنقلوه من الجهل ، وأن تعلموه
واجبه أولا ، وحقه بعد ذلك عليكم أن تفتحوا لأبنائه
طريق المجد ، ولا سبيل الى ذلك الا بالعلم) ثم يختم
هذه الصيحة فيخاطب أولئك الذين يلتمسون لوطنهم
الكرامة ويأبون أن يكون وطنهم مستغلا لوطن آخر ،
ويطالبون بأن تعرف الدنيا مجده القديم وعزته الحاضرة،
وأمله فى مستقبل سعيد يلائم ماضيه ، وحاضره ، يخاطب
كل هؤلاء بقوله (عليــكم أن تمكنوا هــذا الوطن
تحقيق هــذه الآمال التعليمية واستنقاذه من الجهل ،

فلا مجد والجهل مخيم ولا حريـة والجهـل مستأثر بالقلوب) (٢) .

ولكن ما هى صورة هؤلاء البؤساء (المعذبون فى الأرض) كما رسمها العميد فى كتابه ومن خلال فصوله المختلفة ؟؟ كيف رسم الشخصـية المصرية المحيطـة ، البائسة فى عهد ما قبل الثورة ؟ ما هى طموحاتها .. آمالها .. آلامها .. تصرفاتها ؟؟ الوجود الفلسفى الذى يحكم وجودها ؟؟ وبالتالى كيف حدد خصائصها فى فترة تاريخية معينة من تاريخ مصر ؟

هذا ما سوف نبحث عنه فى رحلتنا عبر المقالات القصصية التى كتبها (معنونة) كما يلى : صالح ــ قاسم ــ خديجة ــ المعتزلة ــ صفاء .

هؤلاء هم المعذبون فى الأرض ، والذين (يمثلون

---

(٢) مع طه حسين ــ سامى الكيالى ــ سلسلة اقرأ ــ دار المعارف العدد ٣٧٥ ــ ١٩٧٢ م ــ ص ٩٢ .

الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقا الى العدل مصبحة وممسية ، وفيما بين ذلك من أناء الليل وأطراف النهار) ص ٥٠

٢

سؤال يفرض نفسه علينا ونحن تتناول هذا بالتحليل .. هذا السؤال مرتبط أشد ما يكون الارتباط بمنهج التناول ، والسؤال هو :

هل تعتبر قصص هذا الكتاب والتى حملت (العناوين) السابق ذكرها قصصا قصيرة بمفهوم القصة القصيرة الفنى ؟؟ بمعنى آخر : هل من حقنا أن تتناولها من حيث أنها لن تخضع لأصول وقواعد ينبغى علينا أن نبحث عن مواطن القصور والاخفاق ونخضعها — بالتالى — لهذه الأصول وتلك القواعد ؟؟ وأهمية هذا السؤال تكمن فى تحديد منهج التناول والدرس .. وسوف أعفى نفسى عناء البحث عن اجابة لهذا السؤال الذى طرح نفسه وأكتفى بتصريح الدكتور

العميد الذى ذكر فيه هــذا الأمر حين قال : (لا أحاول أن أضــع قصة فأخضعها لمــا ينبغى أن تخضــع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث الذين تعرض لهم الخطوب •• والذين يبتكرون هذه الخطوب ، لا أضــع قصــة فأخضعها لأصــول الفن •• ولو كنت أضــع قصــة لمــا التزمت اخضاعها لهذه الأصول لأنى لا أؤمن بها واعترف بان النقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ولا أقبل من القارىء مهمــا ترتفع منزلته أن يدخــل بينى وبين ما أحب أن أســوق من الحديث وانما هو كلام يخطر لى فأمليه ثم اذيعه فمن شاء أن يقرأ فليقرأ ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه فليرض مشكورا ومن شاء أن يســخط عليــه بعد القــراءة فليســخط مشــكورا أيضا) ص ٣٢ •

اذن نستطيع أن نقرر أنه لا يحق لنا أن نخضــع

هذه الكتابات القصصية لأصول الفن القصصى لأنهـا أولا : لا تلتزم بقواعد هذا الفن .

ثانيا : لأنها تقيم الأهمية كلها للموضـوع الذى يأتى مباشرا ، هو أقرب الى الصحافة منه الى القصـة القصيرة ، ولنا أن نتساءل : من أى نوع اذن يمكن أن تكون هذه القصص ؟؟ هذه القصص ـ فى حقيقـة الأمر ـ مقـالات قصصية : والمقـال القصصى طالمـا (يؤدى الوظائف الاجتماعيـة للصحيفـة الدورية فى تكامل مع المواد الأخرى التى تحيط القارىء علمـا بالأحداث أو تفسر وتعلل ما يجرى من هذه الأحداث أو تنور عقله بمعلومات وحقائق ، والمقال القصصى فى ضوء هذه الرؤية الصحفية يخرج من دائرة الأدب ، حين يوظف لأداء متطلبات الصحف من تنويع فى المواد شـكلا ومضمونا ، فى اطار من الحيوية والاستجابة لاهتمامات القراء ، وفى شكل مقالى أكثر مرونة من شكل المقامة لأنه يجعل الآثار الأدبيـة التى تقف فى مكان ما بين القصة القصيرة ، والمقال كثيرة جدا) .

ولكن المقال القصصى عند د. طه حسين له سمات معينة يحددها (د. عبد العزيز شرف) فى مقال له عن هذا الموضوع :

١ ــ النمذجة الصحفية فى القالب القصصى .

٢ ــ المواقف الصحفية فى المقال القصصى .

٣ ــ وظيفة الشكل القصصى فى المقال .

وأكتفى ــ هنا ــ بذكر هذه السمات ولا أتناولها بالدراسة فهذا موضوع يحتاج الى وقفة أخرى .

والمهم ــ عندى ــ هو التعرف على الجو العام الذى رسمه د. طه حسين من خلال هـذه المقالات القصصية ، كيف كانت الشخصية تفكر وتعمل وما نوع الفلسفة التى تحكم وجودها ؟؟ وما هو قدرها كمـا رسمه الدكتور الأديب ؟ !

ان البؤس هو البطل الرئيسى فى هذا الكتـاب ، والفقر هو طريق هؤلاء الذين يعيشون حياتهم بلا دافع ولا طموح سوى أنهم يتعذبون فى صمت .. لا تجد

على ملامحهم علامات الغضب ولا التحفز للخلاص ولا بوادر المقاومة والمواجهة .. انهم دمى متحركة .. وجوههم عابسة وملامحهم مستكينة استكانة الموت .. فهذا صالح الصبى الصغير الذى يمثل البؤس عندما يمسك بالصفاء فيشون عليه طائعين مستسلمين بجهلهم يذهب الى صديقة أمين حاملا اليه بعض الزهرات يلتمس بها عطف صديقه من أجل أن يمن عليه بعشاء يملأ معدته الخاوية ، وهو لا يظهر هذه الرغبة لبعض من كرامة يريد أن يستبقيها لنفسه ولا يهدرها هدرا أو يسفحها سفحا .. فلا يفهم صديقه أمين ما وراء هذه الزهرات الا عندما تعلمه أمه أنها وسيلة يلجأ اليها صالح لجلب الطعام ، فيمضى وراءه قائلا له : (أريد أن تبقى لنتعشى معا) ولم يقل صالح شيئا وانما تحول الى رفيقه ، وسعى فى أثره هادئا مطرقا كأنه الكلب يتبع صاحبه اذا دعاه ، ويتألم (أمين) لبؤس صالح فيسأل أمه لماذا لا أفعل مثل صالح وأذهب الى جارنا حتى أصيب مما عنده فتقول له : (لأنك لست فى حاجة الى ذلك فلست محروما) ، طه حسين — هنا — يعرض

صورتين متناقضتين تماما : الصورة الأولى صالح البائس المحروم ، الباحث عن طعامه عند الأغنياء ، الصورة الثانية أمين « المنعم » الميسور الحال ، المندهش لتصرف صالح هذا ، ويريد أن يفعل مثله لغرابة هذا الأمر بالنسبه له ، ورغم أن ملامح صالح واضحة أمامنا الا أن الدكتور (طه حسين) يتخذها رمزا لكل البؤساء فى مصر فأكبر (الظن أن صالحا هذا لم يوجد قط لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها ، يوجد فى القرى ويوجد فى المدن ويوجد فى كل مكان يملأ مصر نعمة وخيرا وهو مع ذلك يشعر الناس بان مصر هى بلد البؤس والشقاء) ص ٢٤ .

صالح أصبح متوائما مع الفقر والبؤس لا حيلة له فى الخلاص أو المقاومة لأن الجهل هو البطل (أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئا تطمئن اليه كما تطمئن الى الصحة والعافية هذا هو الملمح الأول الذى نستطيع أن نضع أيدينا عليه ونعتبره سمة أولى من سمات الشخصية المصرية فى ذلك

الحين ، وهذا الملمح أو السمة هى (السلبية) سـلبية الشخصية المصرية فى مواجهـة أمورها رغم شـدتها ، ويستمر د. طه حسين فى تقديم صورة أكثر لصـالح حين نعرف أن صالحا هذا قد أخذ ثوبا جديدا مما كان يلبسه صـديقه أمين ، أعطته اياه (أم أمين) فسر به أشد ما يكون السرور ولبسه فرحا به ، ولكن زوج الأب تأخذ هـذا الثوب الجديد من أجل أن يلبسه ولدها (محمود) فان الثوب لم يخلق لصالح ، وانما يخلق لابنها محمود ، ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صـالح قد لقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكرا ، فضرب ضربا مبرحا مرض له أياما وجرد من ثوبه الجديد الجميل ورد الى ثوبه القديم) ص ٤٠ .

ولكن ما مصير هذا الصبى البائس ؟؟

كانت نهايته تراجيدية كوجوده تماما ، مات مع الليل تحت عجـلات القطار . وذهب ببؤسه وتعاسته لينقص الألوف من البؤسـاء واحدا ويوفر لهم بعضا من قوت ، هذا هو قدر البائس .. الموت .

وعلى الجانب الآخر نجد أمينا ــ هــذا ــ يخبره والده بانه ســوف يذهب الى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الأقليم •• الموت والحياة وجهان لعملة واحدة هى الوجــود الانســانى ، والبؤس والثراء وجهــان متناقضان ، الغلبة فيهما تكون للثراء دائما •• ويموت صالح حاملا معه هموم البائسين •• ودموع الفقراء •• ويعيش أمين حاملا معه تطلعات طبقته ميسورة الحال•• رائق البال •

اذن فصالح ــ هذا ــ صورة رسمها طه حسين للبؤس عندما يموت فى مهده قبل آن يخضــع لقــانون الحياة ، فيتزوج ويأتى بنسل يزيد من هؤلاء البؤساء ، ويضيف الى أعدادهم أعدادا أخرى •• ولكن ماذا عن بؤس الكبار ، وكيف يعيشونه ؟؟ هــذا ما نجده عند قاسم •

٣

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » •

قاسم الصياد الفقير كان دائما يلتمس من هــذه الآية النجاة وقت الشدة (رغم أنه لم يكن رجلا جاهلا بائسا مريضا يلتمس فى النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته آمونة وابنته سكينة فى بيته ذلك الحقير) •

ونحن نضــع أيدينا على ســمة جديدة من تلك السمات التى تتصف بها الشخصية المصرية آلا وهى سمة (الاطمئنان) رغم غليان الروح ولا يعلل هــذا سوى الايمان الذى يتمكن من قلوب هؤلاء البؤســاء يلتمسون به النجاة والخلاص •

يخرج قاسم الفقير الى البحر ذات يوم يلتمس الرزق (فخرجت له شبكته بسمكة عظيمــة لم يكن يحس ثقلها ، ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب فى قلبه فرح ضئيل) ســوف يبيعها الى عمدة البلد (فهذا الرجل الموسر الذى يرفق به ويعطف عليه ويوحيه بين حين وحين بان يحمل الى داره ما قد يتاح له من صيد حسن ، وذهب قاســم الصــياد الى دار العمدة

(رآه صاحب الدار فقال له قولا حسنا ووضع فى يده قروشا وخرج الصائد راضيا مغتبطا) .

هذا عن قاسم ، فماذا عن بيته وامرأته (أمونة) وابنته (سكينة) نجد أن أمونة توسع ابنتها سكينة ضربا ، لأنها خرجت خارج الدار ، ولم تقل لأمها أنها ذاهبة ، ويأتى قاسم الى داره فعلم أن ابنته سكينة قد ذهبت الى زوج عمتها خفية فى داره ، فتلطم أمونة صدغيها ، ويصيب الهم (قاسم) الفقير . ولكن كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمتها .

ويأتى الجواب صارخا ، قاتلا كالرصاص أنها الحاجة ، الحاجة هى التى دفعت بالابنة الشابة أن تفرط فى أى شىء من أجل أن تعيش أبعد هذا نريد أن نعرف بؤسا أكثر من .

(ان الفتاة قد أطمأنت الى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت به بما كان يطرفها به بين حين وحين من

هذه الطيبات المتواضعة فأكثرت التردد على دار عمتها ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل ، الذى كانت تسميه عمها) ولكن ما هو موقف قاسم من ابنته سكينة : هل يفقد كرامته مقابل الحاجة ؟ هل يضحى بابنته مقابل العوز ؟ لا .. هناك شىء من كرامة ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس ومهما يسىء اليهم الضيق ، فان فى فطرتهم شيئا من كرامة تحضهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق اليهم دون أن يكسبوه أو يحتالوا فيه ـ اذن ـ سمة جديدة من سمات الشخصية المصرية : شىء من كرامة رغم العوز والفقر ولكن هناك شىء هام يطرحه د. طه حسين وهو أن الفقراء يحسون بالبؤس أكثر عندما يرزقون بالبنات لأنهم بفقرهم وبؤسهم لا يستطيعون حماية بناتهم من الذئاب الجائعة فقاسم يزعق قائلا : (ما ينبغى للفقراء أن يلدوا البنات) .

أبعد هذا ننتظر شيئا آخر ؟ من خلال المعطيات التى يفرضها واقع هؤلاء المعذبون تظهر لهم فلسفة

جديدة يرددونها بفطرة الجهلاء .. السذج .. وليس قاسم وليست أمونة وليست سكينة ليسوا وحدهم الذين يلاقون بلية الحياة ويواجهونها فى صمت الموتى ولكن هناك (أمونات وسكينات كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالألوف ، وانما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين) .. وما هو قدرها أهو الموت ؟؟ كان قدر صالح هو الموت ، ولكنه ــ هنا ــ شيء آخر هو الاختفاء (ان أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود اليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى الى النهر من آخر الليل ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء) لقد هرب قاسم من فقره وبؤسه أو ربما أغرق نفسه فى النهر ولكنه ــ فى النهاية ــ تعبير عن سلبية الشخصية التى لا تستطيع أن تواجه .. هذا نتيجة الجهل .. الجهل الذى انتشر وفرد قلوعه على القوم فجعل القصير فبهم فقيرا لا يستطيع المواجهة ، وعلى الجانب الآخر يجد هؤلاء المترفين الذين لا يحسون مأساة قاسم ، نراهم (لا يحفلون بأمونة ولا بسكينة

ولا بقاسم ، شغلتهم أنفسهم عن كل شيء وعن كل انسان) ص ٦٥ .

وتلك سمة جديدة تضاف الى بقية السمات الخاصة بالشخصية المصرية والتى سبق ابرازها أنها سمة (حب الذات) أو الأثرة .. مجتمع مليء بالمآسى .. بالسلبية .. بالقناعة والاطمئنان الكاذب ، بشيء قليل من الكرامة .. وكثير من الأنانية .

أبعد هذا يمكن أن يترك العذاب هؤلاء المعذبين ؟؟

خديجة ابنة شعبان الفقير المقتر عليه فى الرزق والذى يعمل فى اقامة الدور التى تتخذ من الطين الغليظ ، أمها محبوبة (امرأة نصف تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعا خاصا هو هذا الذى يتخذ من الذرة رقيقا مستديرا واسعا) ص ٦٨ .

تعمل عند سيدة خادمة لها فى دارها ، وهذه السيدة كانت تعطى خديجة كل يوم بعضا من الطعام

لكى تحمله الى أهلها ، ولكن خديجة كانت رغم فقرها وبؤسها مثالا للشخصية المعتدة بنفسها فبرغم ظروفها تلك الا أنها لا تقبل أن تكون طعمة للأغنياء (كانت تسعى أن تحمل الى أهلها هـذا الطعام ، فكانت اذا خرجت بالطبق أو الأطباق : تخففت مما فيها ، تهديه الى الفقراء ان وجدت فى طريقها الفقراء ، وتلقيه الى الكلاب ان وجدت فى طريقها الكلاب ، وتلقيه فى عرض الطريق ان لم تجد فى طريقها ناسا أو كلابا ، ثم تضع الأطباق فى زاوية البيت وتستمر خديجة على هذا الأمر الى أن وجدت أمها (محبوبة) (فى زاوية من زوايا بيتها هـذين الطبقتين فلم تشـك فى أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما فى دارهم من متاع ، فلم يبق اذن الا أن تسرق فتخون من يحسنون اليها والى أهلها) ص ٧٢ .

ولهذا فهى توسع ابنتها خديجة ضربا حتى تخبرها خديجة بالحقيقة بعد ما أخبرتها بالحقيقة ربة الدار .

فى هذا المقال القصصى نجد الدكتور طه حسين يضيف خاصية جديدة أو سمة جديدة أخرى من تلك

السمات التى تتسم بها الشخصية المصرية والسـمة هى التعفف (تعفف لا يجدونه عند الأغنياء) .

ولأن خديجة لا تملك فى حياتها شيئا آخر غير هذه العفة والكرامة الثرية فان فتيات القرية يتقربون اليهـا ويتقدم اليها هـذا الغنى القوى الموفر الصحة فتفرح أسرة خديجـة بهذا الفتى ، ولكن (تمتنع عن هـذا الزواج وتلح فى الامتنـاع ، تؤثر حياتها هذه التى تحياها خادما على تلك الحياة التى تدعوها الى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها وهى تمتنع وتلح فى الامتنـاع حتى تثير الريبـة فى نفس أبويها) ص ٧٥ .

وفى المقابل تضطر خديجة الى الموافقة ، وتزف الى زوجها هـذا .. ويقطع الشك تلك الراية القانية التى ترتفع فى ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح وزوج الفتاة سعيدا مغتبطا كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .

ولكن خديجة أكرهت على الزواج ، ومس حياءها

أو نفسها الطاهرة منه ولأنها أكرهت على هذا النحو فقد انتحرت .. الموت دائما هو قدر هؤلاء المعذبين فكما مات (صالح) تحت القطار وكما اختفى قاسم ولم يظهر — وربما مات هو الآخر — تموت خديجة لكى تؤكد تلك الفلسفة التى يضعها د. طه حسين قدرا لهؤلاء البؤساء الأشقياء فى حياتهم ورغم هذه الدقة الشديدة فى ابراز الشخصية الا أن (طه حسين) يقع — بعض الأحيان — فى تناقض يضعف من حدة هذا الجو الذى يرسمه ويضعف — كذلك — من حدة الشخصيات المطروحة فهو يقرر (أن النساء والعذارى من أهل القرية يخرجن الى النهر متغنيات جمال الحياة ، وكأنه حلم ، يلم بنفوسهن فى آخر عهدها بالليل) هذه الصورة تبدو أمامنا وبدلا من أن تؤكد على مفهوم البؤس الذى يحمله الكتاب ، تحمل لنا أحساسا آخر وهو أننا فى جو خيالى صنعته قصص ألف ليلة وليلة ، وليست قصص صنعتها الحياة المصرية البائسة .

وهنـاك سخريـة مريرة نحسـها فى كلمـات (طه حسين) عندما يتحدث عن الشقاء والنعيم فى حياة قومه (لأنى أعلم من جهـة أخرى أن ترف المترفـين انما يأتيهم بحكم القضـاء المكتوب والقـدر المحتوم وليس من سبيل الى تغيير القضـاء أو تبديل القدر أو الغاء سنة الله فى الناس ، فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هـذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف وينعم حتى يبطره النعيم ، ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ويشقى حتى يحميـه الشقاء) ص ٨١ .

الشقاء قدر مكتوب على الأشقياء ، كمـا أن السعادة قدر مقدور على السعداء ولأن (طه حسين) ــ وبذكائه ــ المعهود يعرف أن هنـاك من يتربصون له ، وسوف يضعون أيديهم على سخريته المريرة هـذه فانه يعلمهم بأمر يخرسهم بقوله : (أنـا أريد دائمـا أن أكون كاتبا ذا خطر فأرضى قرائى وأسخطهم وأسر

قرائى وأسؤهم وأعجب قرائى حتى يكلفوا لى أشـد الكلف وأغيظهم حتى يمقتونى أعظم المقت ، وأنـا زعيم المترفين بان يجدوا فى حديث هـذه الأسرة ما يحبب اليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ويرضون عنى كل الرضـا وبان أصور لهم هـذا الترف منكرا بشعا ومذمما بغيضا فيسخطون على أشد السخط وأنـا زعيم المعذبين بان يجدوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضـون عنى وما يلقى فى قلوبهم أن حياتهم لا تطاق وأن من حقهم أن يخرجوا منها الى حياة ألين جانبا وأرق ملمسا ، وأن ليس لهم سبيل الى هـذا الخروج فيضيقون بى أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأعطيهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف) ص ٨٣/٨٤ •

أسـلوب تهكمى •• استنكارى ، يتحـدث به (طه حسـين) فنعلم مدى ما وصـل اليه من مرارة لاحساسه بعذابات هؤلاء المعذبين •

ولكن ما حكاية هذه الأسرة التى تحدث عنها ؟؟

انها أسرة (المعتزلة) أو بالأصح أسرة (أم تمـام) الأسرة الفقيرة ، البائسة التى اعتزلت القوم فى القرية ، فكان بيتها أشبه شىء بالبقعة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى ، كان ضيقا فى الفضـاء الضيق أشـد الضيق ، منخفضا الى الأرض أشـد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشىء من التبن والقش) ص ٩١ .

فى هذا البيت نعرف أن أم تمام تعيش فيه هى وأولادها (تمام) ويبلغ العشرين و (أبو العـلاء) وهو قد جاوز الخامسة عشرة قليلا ، و (سعدى) فى الثانية عشرة من عمرها (كان الجمال والدمامة يختصمان على وجهها) .. الأم وأولادها الثلاثة يعيشون فى هذا البيت الطينى يعملون فى صمت .. يعتزلون القوم .. وكأنهم يشعرون بهذا الاعتزال وقاية لغيرهم من بؤسهم الذى يعيشون فيه (ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بيتها قط الاتصـال بالنـاس الا حين كانت الضرورة الملجئـة تضطرهم الى ذلك اضطرارا ، فقـد كانوا يحتاجون الى أن يشتروا الطعام ليقيموا أودهم ،

وكانت (أم تمام) تحتــاج أحيانا الى أن تبيع لهذه الأسباب فقط تخرج هذه الأسرة الى الناس ، ويستمر بهم الحال على هــذا النحو من الشقاء والعذاب الى أن يقبل الوباء (الكوليرا) (فيخطف ابنيها فى أقل من خمسة أيام وهى مع ذلك هادئة ، ساكنة مطرقة بجسمها كــله الى الأرض ، لا يرتفــع لها صــوت بالأعــوال ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وانما هى مقيمة فى بيتهــا وقد أوت اليها ابنتهــا كأنما تنتظران أن يلم الوباء) ص ٩٦/٩٧ ، وتعيش أم تمام فى حزنها وعذابها الى أن يأتى نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شــاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعا ، وقد رأوا (أم تمام) تغرق نفسها وابنتها فى القناة الابراهيمية فأسرعوا الى استنقاذها ولكن المــوت ســبقهم الى الشيخة وسبقوه هم الى الصبية) ص ٩٩ .

وتعيش (سعدى) فى بؤس وفقر الى أن يراها أهل القرية فى يوم ما (تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضــع فى أحشائها جنينا ، وتختفى ســعدى فى يوم ما ــ أيضا ــ كمــا

اختفى قاسم الصياد الفقير من قبل لا يعرف أحد أين ذهبت ولا تهمهم المعرفة فى شيء ٠

نستطيع مما سبق أن نلمس عدة أشياء : الشيء الأول التخلص من الحيـاة المعذبة بالموت ، فهل هناك أصعب من أن تذهب أم وابنتها لكى تغرقا فى ميـاه الترعة تخلصا من هـذا العذاب الذى تعيشانه — قد يكون هذا الموقف سلبيا وهو بالطبع كذلك — ولكنه نتاج تلك الأثرة التى هى الأساس المتين الذى قام عليه النظام الاجتماعى فى مصر ٠

الشيء الثانى : د٠ طه حسين يؤكد أن الموت هو قدر هؤلاء ، فهـذه الأسرة قد مات أفرادهـا كلهم واختفت سـعدى ، الاختفاء هو أحد حـدى القدر ، فاما الاختفاء وأما الموت ٠

٦

ولو أن الدكتور العميد قـد تناول فيما سـبق نماذج وأنماط تعبر عن حـال الطبقـة الدنيا — فى تلك الفترة من الزمـان فما هو حال الطبقة المتوسطة ؟؟

هـذا ما يعرضـه علينـا طه حسـين من خـلال مقاله القصصى الذى كتبه تحت عنوان (صفاء) .

هنـاك أسرتان فى هـذه القصة ، الأسرة الأولى تتألف من (ميخـائيل) وزوجـة (حنيفة) وأبنتهـا (صفاء) وهى أسرة متوسطة والأسرة الثانية تتألف من المعلم يونان وزوجته مرجانة وابنها) عبد السيد (رب الأسرة الأول (ميخائيل) صاحب تجـارة يسيرة هينة قد اتخذ له حانوتا يبعد عن داره بعض البعد يبيع فيه سقط المتاع من الخرز الذى يتخذ الفقراء منه عقودا يتحلى بها النساء والفتيات وشيئا من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن وزينتهن حين يتبرجن .

وأما الأسرة الثانية (المعلم يونان) كان كاتبـا متواضعا فى دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفا على دفاتره ، أو محاسبا للناظر أو مراقبا للمعاون . وقد سعت الأسرتان المتجاورتان فى طريق واحـد الى الضيق ، ثم الى الضيق الشديد ، ثم الى الاعـدام

والحرمان ، فازدادت الصلات بينها قوة وفزع الشيخان القاعدان للبطـالة والحديث وجعلت مرجـانة وحنيفة تلتقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار تتقاضان المنافع وتتعاونان على أثقال الحيـاة وتتجاذبان أطراف الحديث كما يقال) ص ١٣٣ .

ولكن ما حكاية صفاء تلك والتى اتخذها الدكتور عنوانا لمقاله القصصى أحبت صفاء ابنة ميخائيل وأخت نصيف أحبت (عبد السيد) ابن المعلم يونان ، ويلتقيان أكثر من مرة (واذا الأسرتان تلحظان أن لهذين الفتيين شأنا فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ثم تبتسم القلوب، قلوب الشيوخ لهذه الصـلة الناشئة بين هذين القلبين الشابين) ص ١٣٥ .

ويستمر الحال على هـذا الأمر الى آن تتحدث (مرجـانة) الى حنيفة ويتحدث المعـلم الى المقدس وتصبح الخطبة شيئا مقررا متفقا عليه .

كل هذا ونصيف ابن ميخائيـل مقيم فى عزبتـه تتقاذفه المدن فى أعلى الأرض وفى أسفلها ، وقد ثبت فى

منصبه فلم يقبض أجره مياومة وانما أصبح موظفـا بالمعنى الدقيق) بعد أن أخذ دبلوم البرق فأصبح مرتبه أربعة جنيهات ونصف جنيه وكان لأبويه ، من المرتب نصيب يصــل اليهما أحيانا كاملا وأحيانا منقوصـا ، وتتخلف عنهما بين حين وحين ويستمر الحال على هــذا الى أن يموت الأب (ميخائيل) ، (مما ألقى فى روع الفتى أنه أصبح بعد موت أبيه رجلا يحتمل التبعات وينهض بأعمال الأسرة • وقد واجه التبعات والأعبــاء مواجهة حسنة فشــمل أمه وأختــه بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره فى السعى حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة ، والتى كان يعمل فيها الى مدينته هــذه التى تقيم فيها أسرته) ص ١٣٧ •

وتمضى أمور الأسرة كما تستطيع (فاذا هو يرقى بها اليها) ويعرض الابن (نصيف) على أمه أن هناك زميــلا له حدثه فى أمر أختــه (صفاء) (ولم تتعود الأمهات فى مثل هذه الأحوال والبيئة مقاومة أبنائهن

وانما تعودن الاذعان لهم والاستجابة الى ما يريدون)
ص ١٤٠ •

وعلى الرغم من أن صفاء تحب (عبد السيد)
الا أنها هى الأخرى تذعن لارادة أخيها (نصيف)
وأما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف
الجريمة ومرة بقتل نفسه ، ثم يرد الى هدوء منكر من
ورائه شر عظيم ولم يحفل عبد السيد بعد ذلك بشىء
حتى ظنت أمه مرجانة به الظنون (فقد كان الفتى عابثا
فى حبه اذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب
بينه وبين هذا الحب •

وهمت مرجانة آن تتحدث ذات يوم الى ابنها
(عبد السيد) فى بعض ذلك فقال لها متضامنا (ما نحن
وذاك أن المال أقوى قوة وأعظم بأسا وأشد سلطانا
وأشد اغراء من الحب وما ينبغى للفقراء آن يحبوا)
ص ١٤٥ •

والدكتور (طه حسين) يضع فلسفته الخاصة
عن الحب عند الفقراء هل هو حب مترف••مريح ، سهل

المنال ؟ أم هو حب عسير المنال ؟؟ أنه حب عسير المنال وكما صرخ (قاسم) الصياد من قبل معلنا أنه (ما ينبغى للفقراء أن يلدوا البنات ••) فان (عبد السيد) المحب المطعون فى قلبه المحب ، لأنه فقير ، يعلن نفس الصرخة (ما ينبغى للفقراء أن يحبوا) اذن فالحب عند الفقراء محكوم عليه بالاعدام ، الفقير عندما يحب حبا خالصا ، يحس أنه غريب ضائع •• وكأنه يعيش فى عالم ليس عالمــه ، ومن هنا تتقاذفه الأمواج حتى يسقط فى الهوة الأخيرة (الموت) فهو ليس الفارس القديم الذى يركب حصانه ويختطف حبيبته لتركب خلفه ويأخذها ويطير بها ، ولكنــه ينعى حبــه ويقول مع الشــاعر المعاصر (بدر شاكر السياب) :

ان القلوب والصبابات وقف على الأغنياء

(فان المــال أقوى من الحب) فلسفــة جديدة يعلنها لنا (طه حسين) لكى نعلم أنها الفلسفة المحركة لوجدان هؤلاء القوم (متى استطاع الفقير المعدم أن ينفذ من أسوار المــال والثراء) ص ١٤٥ •

الحب الرأسمالى قائم على حب التملك والسيطرة ، فالمرأة فيه تتحول الى سلعة تشترى بالمـال .. والحب الاشتراكى قائم على التفاهم والمشاركة وتخطى الصعاب، فأى الحبين يرغبـه طه حسـين ويدعو اليه يتساءل (أحق اذن أن الحب لم يخلق للفقراء ، وأن الفقراء لم يخلقوا ليحبوا وانما خلقوا ليكدوا ويجـدوا ويعطوا ويكسبوا القوت ، فان بلغ من ذلك ما يريدون فهو خير لهم ، وان لم يبلغوه فان فى الشقاء لهم سعة وفى الموت لهم راحة وروحا) ص ١٤٧ .

وكما قلنا ــ ومن خلال ما طرحه طه حسين ــ فان قـدر البؤسـاء هو الموت ، أو الاختفـاء ، نرى أن (عبد السيد) قد مات تحت عجـلات القطار ، كما مات ــ من قبل ــ وبنفس الميته (صالح) البائس .

وصفاء ماذا عنها أنها تزوجت مرغمـة ، مذعنـة الارادة ، تزوجت من غـير حب حقيقى ، لم تسـتطع التمرد لأنها لا تملكه ، فهى مسلوبة الارادة ، وهـذه سمة عرفنا أن (طه حسين) يؤكدها على مدار المقالات

القصصية عندما أرادت أن تتمرد ، تمردت بالموت ، انتحرت ، كمـا هو واضح فانه تمرد سلبى ، وتقول حنيفة فى النهاية (يا ليتنا لم نعرف المـال) وتقول مرجانة فى نحيبها (يا ليتنا لم نعرف الحب) ويقول (يونان) (قد عرفنا الموت الذى هو أقوى قوة من المـال والحب جميعا) .

وفى النهاية يبقى هذا الصراع متواصلا للبحث عن العدل والحرية طالمـا هنا قوم بؤسـاء (يحرقهم الشـوق الى العـدل) وطالمـا هنـاك قـوم أثرياء (يؤرقهم الخوف من العدل) يستمر هـذا الصراع ليبلور تراجيدية الوجود التى تحكم هؤلاء القوم ، أن وجودهم فى واقع الأمر وجود تراجيدى ينتهى فى أغلب الأحيان بالموت ، بالاختفاء ، بالانتحار وكلها فى اعتقادى مواقف سلبية لا تدعم حقوق هؤلاء ، رسمها طه حسين ليؤكد للسـلطة الحاكمـة بؤس البائسـين وعـذاب المعذبين .

يبقى فى النهـاية أن نجيب على السـؤال الذى طرحناه فى مقدمة هذه الدراسة وهو :

هل يعتبر هذا الكتاب تصورا ثوريا لانفعالات المجتمع المصرى ضد القهر والظلم الذى ساد فى مجتمع ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ؟؟

وهل يعتبر (طه حسين) ومن خلال هذا الكتاب صاحب فكر اشتراكى ؟ • من كل ما سبق نستطيع أن نقول ان كل ما يكتب عن وضع معين قائم وهذا الوضع يتعارض مع طبيعة الوجود الانسـانى يعتبر سبيلا من تلك السبل التى تحدث فى النهاية هذا الفعل الثورى ، ود• طه حسين خلال فصـول هذا الكتاب استطاع أن يجعل هذه المـآسى تطفو فوق السطح لكى تحدث فى النهاية هذا الرد الفعلى فى التغيير أو الثورة وقد عمل على أحداث هـذا الفعل فى الحدود التى تعرض لها ومن هنا نعتبره وبلا وقوع فى خطـأ تصـورا ثوريا لانفعالات المجتمع المصرى ضـد القهر والظـلم الذى ساد فى مجتمع ما قبل الثورة ، وهو من خلال المطلوب

والمعطى والمرغوب يعتبر تمهيدا للأفكار الاشتراكيـة التى أصبحت تيـارا أساسـيا من تيارات العصر بعد الثورة •• اشتراكية لا تنبع من أيديولوجيـة معينـة ولكنها تنبع أول ما تنبع من الاحساس المرهف بقضايا المجتمع الذى عاش فيه فعبر عنه فى صـدق الكاتب والمفكر •

(ما وراء النهر)
البحث عن العدل الاجتماعى

فى الفترة التى كتب فيهـا د. طه حسين هـذه القصة ــ وبالتحديد سنة ١٩٤٦ عندما نشرت فى أعداد مختلفة من مجلة الكاتب المصرى التى أصدرها طه حسين فى أكتوبر ١٩٤٥ ، ونشر فيها ــ فيما بعد (المعذبون فى الأرض) ــ فى هذه الفترة كان هناك التزام أو شبه التزام بين الكتاب ــ وأقصد كتاب الرواية والقصة ــ بالأسلوب التصويرى هذا الأسلوب الذى قد يجعلهم يوغلون فى مراتبـه للدرجـة التى قد تصـل بهم الى

الاغراق فى الرمز ، فنرى أعمـالهم بما فيهـا من رمز واشـارة وتلميح ، يضفى عليها شىء من الغموض ، وهذه المسألة واضحة عند « يحيى حقى » ـ كمثال ـ فى مجموعة (عنتر وجوليت) وكذلك انتاج « محمود تيمور » المبـكر وطاهر لاشـين مرورا بـ (حـديث عيسى بن هشام) وزينب .

والدكتور طه حسين يحس بكل هـذا ، فنجده يصرخ فى مقدمة كتابه (المعذبون فى الأرض) قائلا :

(ان هذا الأدب الجديد الذى أنشأته حكومات الطغيان انشاء حين اضطرت الكتاب الى العدول عن الصراحـة الى فتون من التعريض والتلميـح ، ومن الاشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه وتنافس فيه القراء تنافسا شديدا ، وجعلوا يقرءون ويؤلون ، ويناقش بعضهم بعضا فى التأويل والتحليل واستخراج المعانى الواضحة والاشارات الغامضة) .

نجد أن الدكتور طه حسين فى قصـته (ما وراء النهـر) يقرر أن أحداثهـا لم تقـع فى أرض مصر ،

(فليست هذه القصة مصرية ، لأن مكانها لا يوجد فى أرض مصر ولأن الأشخاص لا يعيشون فى جو مصر ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين فأهل مصر كلهم أخيار أبرار • فلست ترى بينهم قويا يستذل ضعيفا ولا غنيا يستذل فقيرا ولا ناعما يستطيل على بائس ولا سعيدا يستخفى بشقى) •

فماذا اذن يقصد الدكتور العميد بهذا الكلام •• ؟؟

أحقا لم تحدث الأحداث فى أرض مصر ؟ وهذه الشخصيات أليست شخصيات مصرية فى تكوينها وسلوكها ، حتى تنفى عنها صفة المصرية •

ـ لابد أن الدكتور العميد يطمح من وراء ذلك الى التهكم والسخرية فهذا الالحاح الدائم والمستمر لهذا التأكيد على أنها لم تقع وما كان لها أن تقع فى أرض مصر ، يؤكد صحة هذا الأمر ، وما تحمله من أشياء غامضة تحتمل التفسيرات من قبيل « ما صلة الناس بمنبع النهر ومصبه ولماذا تمتلىء نفوسهم هولا ورعبا

اذا فكروا فى عبور شاطئه الشرقى الى الشاطىء الغربى؟؟ وما سر هذه الجبال الشاهقة التى ترتفع فى السماء فيما وراء النهر ؟؟ وما هذا الشىء الذى يكون وراء النهر ؟

يقول رءوف متحدثا الى صديقة الشاعر (انظر الى ما وراء النهر أترى شيئا .. ؟ فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هذه النار التى تتألق على هذه القمة ؟ قال رءوف : نعم ، متى عهدك بها قال الشاعر : لا أعلم أنى رأيتها) ص ١٠٦/١٠٧ .

ـ اذن ما هذه النار التى تتألق على هذه القمم العالية وما الصلة بين هذه النار وبين مصرع الفتاة ؟ وما الذى يدفع برءوف وهو صاحب الجاه والمنزلة الى أن يفكر فى عبور الضفة الأخرى من النهر ؟؟

أسئلة كثيرة يفرضها علينا هذا العمل ، وقد تجعلنا ـ تبعا لما يقرره طه حسين فيما قلنا ، وقد جاء فى مقدمة كتابه (المعذبون فى الأرض) أن نفكر فى أن الفترة التى كتبت فيها هذه القصة قد جعلت الكتاب

يضطرون (الى العدول عن الصراحة ، الى فنون من التعريض والتلميح ومن الاشارة والرمز حتى استقل هذا الأدب بنفسه) •

لاشك اذن ان هذه الأشياء المبهمة والمعماة تتخذ رموزا لحقائق عامة يعرضها الكاتب على القراء ويترك كلا منهم يفسرها حسب تكوينه الفكرى والاجتماعى . وهذا ما يفسره لنا — كذلك — أن د. طه حسين يطلب من القراء (ألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات عناء فهذه القصة لا تحتمل القراءة السلبية وانما هى تريد ، بل هى لا تقوم الا على المشاركة الايجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارىء حين يتم الرسم ويملأ ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن ارادة وعمد) ص ٢٨/٢٩ •

اذن فهناك أشياء تركها الكاتب عن عمد ، يتركها للقارىء يكتشفها وحده ؟ ••

ورغم أن الدكتور العميد يصرح أنه (لا أصطنع من حديثى رمزا ولا ايماء ، وانما اصطنع الصراحة التى

تؤثر الجلاء وتكره الغموض) رغم أنه يصرح بهـذا الا أننا نجد أنفسنا وبمواجهة كل ما تقدم نختلف معه فى هذا الأمر ، ولنا الحق فى هذا الاختلاف حيث أنه يعترف لنا دائما بتجربته فى التناول والتوصيل والايهام، فلنا نحن أيضا حرية أن نرفض أو نؤيد أو نختلف ، تبعا لمعطيات العمل المكتوب ، وتبعا ــ كذلك ــ للتكوين الفكرى والثقافى الذى يميز بعضنا عن بعض .. وهذا ما يجعلنـا نتساءل ــ فى البدايـة ــ وقبل أن ندخل الى عالم القصـة الحقيقى يجعلنا نتساءل عن هـذه (الربوة العظيمة الارتفاع والاتساع ، وهـذا القصر الشاهق والشجر الباسق والزهر الرائق والنجم السائق والنهر الدافق الذى يجرى من تحت كل هذا فى أناة حينا وفى عنف حينا آخر) ص ٢١ .

نتساءل عن كل هذه الأشياء التى يصر الدكتور العميد على ضرورة وجودها حتى تكون هـذه القصة التى يقصها علينا فى استطراد طويل .. وتفصيلات كثيرة، ويقرر انه يعرف ان (قوانين الفن تتيح أن توجد الربى وتفنى وأن تظهر وتخفى بل هى تبيح أن توجد هـذه

الربوة فى مدينة القاهرة نفسها الى أن تقع الأحـداث ثم تمضى بما عليها كأن لم تكن بالأمس) ٠

طالما أنه يعرف كل هذا ، فلماذا هـذه الاطالة وهذا الاستطراد ؟ الى تأكيد ما هو مؤكد من حيث أن هذه القصة لم تقع أحداثها فى مصر ، وان هذه القصـة يلزمها ربوة عظيمة ٠٠ الى آخره ؟ ! الأمر الذى يستغرق من هذه القصـة التى تقع فى ثلاثة عشر فصـلا ٠ يأخذ منها أكثر من ثلاثة فصـول حتى نضع أيدينا على أول الخيط المكون لنسيج القصة ٠

وبعد معرفتنا ان أحداث القصة ربما تكون فى (أسبانيا) لأن بها ربى كثيرة عالية ٠

أسئلة كثيرة طفت أمامنا على السطح قبل أن نبدأ مع هذه القصة الأحداث ، والدكتور الأديب يبرر هذه الاطالة تبريرا أراه غير موضـوعى اذ أنه يقرر (أن هذا الحديث قد طال وأسرف فى الطول قبل أن يصـل الى أول هذه القصة ــ يقصد القارىء ــ فليس على القراء الا أن يقرءوا ويسيغوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم

ليس عليه الا أن يجلس الى مائدة الطعـام فى مواعيد موقوتة ليمضع ويسبغ) ص ٢٩ .

ولهذا السبب الذى ذكره فانه يقول : « لا أحب هذا اللون من الطهى الأدبى ، لأنى أكبر نفسى وأكره أن أكون خادما للقراء من جهة ولأنى أكبر القراء وأكره أن تكون آذانهم أفواها وعقولهم بطونا يلقى اليهـا الكلام فيسمعون ثم يسيغون ، لا أحب شيئا من هـذا وانما أحب أن أنشىء بينى وبين القراء نوعا من الزمالة بحيث نبدأ القصة معا ونمضى فيها معا . تتفق أحيانا ، ونختلف أحيانا أخرى ، ويشجر بيننا الخلاف والخصام من حين الى حين » ص ٢٩ .

قلت أننا نختلف مع هذا التبرير لأسباب منها :

أولا : أن التفصيلات هذه من شأنها أن تصرفنا عن العمل لا أن تقربنا منه .. خاصة ان هـذا العمل قصة ينبغى عليها أن تضع القارىء مع الأحداث من أول وهـلة .

ثانيا : ان احداث الزمــالة بين القارىء والكاتب لا تصنعها الاطالة بقدر ما يصنعها الصــدق فى التوصيل والقدرة على النفاذ الى وجدان هذا القارىء •

ثالثا : ان يحدث خصــام بين القارىء والكاتب ينبغى ــ لو حــدث ــ أن يحــدث بسبب اختــلاف أو تعــارض فى وجهــات النظر لاختــلاف التكوين الاجتماعى والثقافى والسيكولوجى ــ أيضا ــ عند كل من الطرفين : الكاتب والقارىء •

ومن أجل أن نبحث عن هذا الشىء الذى يحدث بيننا وبين الدكتور انشجار أو الخصام ــ الذى لا نود أن يكون ــ سنحاول أن ننفذ الى أعماق هــذا العمل بالتحليل والدراسة منطلقين من قوله : (اقرأ ان شئت وآرض ان شئت لو آثارت القراءة فى نفسك الرضــا وأسخط ان أثارت القراءة فى نفسك السخط ، وأنــا أعفيك من الثناء والتقريظ مخلصا ، وأبيح لك النقد والعيب مخلصا أيضا) •

٢

تدور أحداث قصة (ما وراء النهر) فى موقعين يختلف كل منهما عن الآخر فى التكوين والشخصيات . ولكن هناك رابطة ما تربط بين هذين الموقعين .

ـ الموقع الأول الذى تدور فيه الأحداث هو قصر هذا الشيخ الثرى (رءوف) والذى يوجد فوق ربوة عالية .. والشخصيات التى تدور بهم الأحداث فى هذا المكان هم : (رءوف باشا) وولده الفتى (نعيم) وصديقه (الشاعر الشيخ) .

ـ والموقع الثانى الذى تدور بسببه الأحداث هو هذه القرية التى (تقوم على سهل منبسط مما يلى الربوة وهى بعيدة الارجاء ، مترامية الأطراف قبيحة المنظر الى أقصى غايات القبح ، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع فى الجو الا قليلا ولم تتخذ من الحجر ولا من الآجر ولا من اللبن ، وانما اتخذت من الطين قد صنع صناعة غليظة خشنة وأسند بعضه الى بعض وأقيم

بعضه على بعض ، فائتلفت منه بيوت كانت تريد أن تكون جحورا تتخذ فى باطن الأرض) ص ٢٧ .

ــ وأهل هذه القرية هم (أحرار كالعبيد ، وعبيد كالأحرار ، ليسوا راضين ولا ساخطين ، لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط وانما يعيشون كما تعيش النمل ، وتدفعهم الغريزة وتدبر أمورهــم ارادة ســادتهم فى القصر) ص ٣٣ .

وشخوص هذا المكان الذين تدور بهم الأحداث هم : محمود الاسكاف وابنته خديجة وولده أحمد .

هذان المكانان يقعان أمام هذا النهر ، وعلى الضفة الشرقية منه ووجود هذا النهر فى هذه القصــة وجود شبه أسطورى .. أو قل وجود ميتافيزيقى ــ ان صح القول ــ (لأنه نهر عجيب من الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعا ولا مصبا وانما يرونه يسعى من الشرق الى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول : من أين يأتى ؟ ولا الى أين يجرى ؟ .

وقــد حــاول المستكشــون أن يعرفوا من أمره

الأنهــار الأخــرى فى الأرض فــلم يبــلغوا من ذلك شيئا) ص ٣٥ ٠

ــ هل رأيت نهرا فى حياتك مثل هذا ٠٠ ؟ !

المهم ٠٠ ما هى الأحداث التى تدور على هــذين الموقعين ٠٠ ؟؟

فى الموقــع الأول وفى قصر الســيد رءوف نرى الشاعر الشيخ يمشى متوكئا على عصاه بعد ما خرج من جناحه الذى يقيم فيه عن يمين القصر متوجهــا الى صاحب القصر ، حيث تعود أن يجلس معه فى غوســق جميل على شاطىء النهر ، ولكن البستانى عثمان يخبره ان سيد القصر رءوف فى مكتبه منذ الصباح يجلس فيه عابسا ٠٠ مهموما ٠٠ فلا يهتم الشاعر الشيخ بهــذا الكلام فيطلب القهوة من الخــادم ويذهب الى النهر يتحدث اليه ويكتب عنه ٠ (وكان هذا الشاعر الشيخ وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يعنى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسراره ويعرف دقائق أمره) ص ٣٧ ٠

ويظل الشاعر الشيخ واقفا فى مكانه أمام النهر على حالته الى أن يجيئه الخادم كى يخبره ان السيد رءوف يطلب لقاءه .. ولكنه ينصرف عنه ويذهب مرة ثانية الى النهر يحادثه (وما من شك أن حديث النهر كان أحسن موقعا فى نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذى لم يكن ينبئه بشىء جديد) .

(ولكن النهر كان يأبى دائما أن يقرأ على الشاعر أو يملى عليه شيئا غير ما يريده هو .. وكان الشاعر يجد فى هذا الاباء والامتناع ما يشقيه فى وقت واحد : يشقيه لأنه يبعده عما يحب ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه) ص ٤٤ .

ـ ويستمر الشاعر الشيخ على هذا الى أن يأتيه ابن صاحب القصر وهو فتى نيف على العشرين يسمى نعيما .. ليخبره أنه يبحث عنه لكى يودعه حيث أزمع على السفر قبل أن يقبل الليل ويتحدث اليه الرجل متسائلا عن السبب .

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفى سخرية

مرة : فانها المـأساة يا سـيدى ! لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد فى حياة القصر كل شيء .

قال الشاعر وماذا بك .. ؟

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل انهم يستبقون الشـباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرحة وما يبيح لهم من تجـاوز الحدود يرون ذلك سائغا حين يتصل بأشخاص ويرونه حراما حين يتصـل بغيرهم من الناس ، وعندما يخبره الشاعر الشيخ أنه لم يفهم شيئا .. نعرف . نحن ــ بعد ذلك أن سيد القصر (رءوف) والد الفتى نعيم قد طرده من القصر وتخلص من زوجه أم نعيم بالطلاق والسبب فى ذلك وكما يصرح نعيم هو أنه أحب فتـاة من أهل القرية ، راقة منظرها وفتنة سحرها ، فصبت اليها نفسه، وانتهى الأمر بهمـا الى غايتـه من الاثم .. خدعهـا فانخدعت .. ونعيم هـذا يشـكو هـذا الأمر الى (الشاعر الشيخ) قائلا : (وأنت شاعر يا سيدى تعرف

أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عبدا والعبد سيدا) ويبرر (نعيم) سخط أبيه عليه بقوله (فما أرى انه يسخط على الا ضنا بى أن أنزل الى مكانه دون مكانتى ، وخوفا على أن أتجاوز بهذا الحب المجون واللهو وارتفع به الى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الأباء ، ولو قد حدثته يا أبى أريد أن اتخذ هذه الفتاة لى زوجا ، لجن جنونه وضل ضلاله) ص ٥٦ ٠

ــ ويعلن أن الفتاة قد وقعت من نفسه موقعا خاصا ، واستقر حبها فى قلبه استقرارا مكينا وليس يرى من الاقتران بها بدا ٠٠ ولهذا السبب طرده أبوه ٠٠ ويخرج الفتى نعيم معلنا (ولكن سأتخذ خديجة لى زوجا ، فان استطعت وان أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير الى أبى فى رفق فأفعل ، وان عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيه ولا لين ٠

ــ وبعد هذا يأخذنا الكاتب الكبير الى الموقع الثانى ليروى أحداثا جديدة حيث هذا الزقاق الضيق

فى القرية ، وحيث محمود الاسكافى والد (خديجة) وأخوها (أحمد) لنجده يعمل (فى ترقيع نعل أو اصلاحه) وهو ــ كما وصفه طه حسين (فى أكثر أحواله صامت كالمتكلم لا يوجه الى أحد حديثا ، ولا يكاد يجيب أن وجه أحد اليه الحديث) ص ٦٥ .

وبيته هذا مكون من حجرتين أحداهما يأوى اليها الشيخ الاسكاف (محمود) وامرأته (محبوبة) ، والحجرة الثانية يأوى اليها أبناء الدار وهم ثلاثة : أكبرهم (أحمد) قد نيف على العشرين وكان يبلغ الثلاثين وهو فتى (طوال مظلم الوجه قوى الجسم قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شىء ، ولا تراه الدار الا حين تغرب الشمس) وأصغرهم (على) لم يتجاوز الثانية عشرة بعد وبين هذين الابنين من أبناء الدار (خديجة) ــ التى كادت تبلغ العشرين والتى لم يدر من أين جاءت ولا لأى أبويها يمكن أن يضاف جمال وجهها وهدوء وأمن عينيها الجميلتين .

هذه الفتاة هى التى أغربهـا الفتى (نعيم) ابن صـاحب القصر الضخم الفخم ــ والأب (محمـود) الاسكاف يعلم كما تعلم امرأته محبوبة أمر هذه العلاقة التى تربط ابنتها خديجـة بهذا الفتى ــ ابن سـيد القصر ــ ففرحا به فرحا حزينـا وهما ان يكفا ابنتهما (خديجة وينصحاها بالابتعاد عن هذا الفتى . فلما لم يبلغا شـيئا تواصيا بكتمـان الأمر على ابنهما الفتى (أحمد) الذى عـاد فى يوم ثائرا يكظم ثورته ، يلقى نظرة داخل الدار ولمـا لم يجد أخته (خديجـة) فى الدار يتركهما خارجا .. ليعلن الأب الشيخ أن ولده يسعى فى أثر أخته خديجـة ، ويعلن خوفه من عـدم عودته !! ونعرف أن أحمد قد (لحق بأخته فى العاصمة وقتلها وأسلم نفسه للشرطى ، معترفا بانه اقترف هذا الاثم دفاعا عن شرفه الملكوم) ص ٧٣ .

ثم يعـود بنا الدكتـور الأديب الى حيث القصر الضخم الفخم ــ كمـا يصفه لنرى بقية الأحـداث : الشاعر الشيخ مازال واقفا أمام النهر .. ثم يتوجه الى صديقه سيد القصر ليرى أمر الابن (نعيم) وأمر عبوس

هذا الصـديق صاحب القصر .. وبينمـا هو واقف ينتظر أن يأذن له سيد القصر بالدخول عليه فى مكتبه ، يكشف لنا الدكتور العميد عن شخصية هـذا الشاعر الذى يحدث نفسه ، ومن خلال هذا الحديث نعرف انه كان بائسا .. ضائعا لاحظ له فى هذه الدنيا ولا مال .. بعيش كل ليـلة عند صـديق يلتمس منـه الطعـام والشراب وما الى ذلك حتى تعرف على هـذا السـيد رءوف فى ليلة سهرا فيها داخل مقهى ، فتعرف عليـه وأسمعه بعضا من أشعاره فاتخذه صديقا ونديما وجعله يسكن فى جناح يجـاور ، القصر .. وعمل ــ كذلك على نشر عدة دواوين شعرية له .. ولكنه يشعر فى قرار نفسه انه كالخدم فى هـذا القصر يقول ؟ (أنـا على كل حال خـادم من خدمه ، الأيسر له ما يحتاجه من حياته المـادية ولكنى أعينه على احتمال هـذه الحياة وأيسر له القليل الذى يحتاج اليه فى حياته العقلية) ص ٨٤ .

ــ ونحن حتى الآن لا نعرف من أمر هذا السيد (صاحب القصر) شيئا ولهذا فان الدكتور يقرر انه

(شيخ تقدمت به السن شيئا ، ولكنها لم تبلغ من قوته ولا من شباب قلبه شيئا ، وانما هو رجل طوال يميل الى البدانــة أكثر ما يميل الى النحــافة ، وهو رائع الطلعة ، رائق المنظر لا تقتحمه العين ، وانما تتصل به فتطيل الاتصال ، تجد شيئا من اللذة فى النظر اليه ، والى وجهه الذى لا يخلو من جمــال مهيب ، والذى تضطرب فيه عينان صغيرتان نفاذتان ، فيهما شىء من حدة ولكنهما تصــوران هدوءا ودعة وثقة ، تقرأ فيهما الايمان بالنفس) ص ٨٩ .

ــ ونستمر مع (طه حسين) الى أن يقرر أن هذا السيد (لم يكد يبلغ أول أطوار الشباب حتى استجاب لدعاء شهواته وغرائزه ، فعبث ما شــاء له العبث ، وأفسد ما شاء له الفساد وهم أبواه أن يكفاه عن بعض ذلك فى تلطف ورفق ، فلم يبلغا منه شيئا ، وانما كان لومهمــا له اغــراء ونصهمــا له دفعــا الى الغــلو والاسراف) ص ٩٢ .

ــ فكان صاحب نزوات طالمــا آذت زوجــة ،

وطالما آذته هو •• وطالما أرهقته وأرهقت زوجه من أمرها عسرا ويسكن أن يقال أن نعيما ابنه قد نشأ فى بيئة ظاهرها النعمة ، وباطنها النقمة كل شىء من حوله ميسر الا أمر أبويه ، فانه كان عسيرا أشد العسر ملتويا أعظم الالتواء) ص ٩٤ •

ونجد الشاعر (الشيخ) يدخل على رءوف سيد القصر يتحدث اليه فى أمر ابنه نعيم الذى يسافر أو يريد السفر ، فيعلنه الأب أنه لابد له أن يسافر وعندما يعلم أن (خديجة) قد قتلت تصيبه الدهشة ويصرخ متسائلا : كيف قتلها أخوها ، أو أين قتلها وهذا القتل الذى تم قد نبه رءوف سيد القصر الى شىء لم يكن يفكر فيه وهو ان أهل القرية ينزعون الى شىء جديد ، ويجب أن نسير معهم سيرة جديدة ، وأن نلائم بين طموحهم هذا الطارىء وسياستنا لأمورهم •• الخ) ص ١٠٢ •

وفى نهاية الفصل ١٢ نرى السيد (رءوف) يلقى بالسؤال الأسطورى الى الشاعر الشيخ : أنظر الى ما وراء النهر أترى شيئا ؟؟

فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هــذه النار التى تتألق على هذه القمة ؟؟

قال رءوف :

نعم •• متى عهدك بها ؟

قال الشاعر :

منذ أشــهر •

قال رءوف :

ولم تكن تراها قبل ذلك ؟

قال الشاعر :

لا أعلم أنى رأيتها قبل أن تلم الخطوب ، وهنا أطرق رءوف أطراقة طويلة ويعلن للشيخ ، فى نهايــة هذا الفصل أن الفتاة (خديجة) قد وقعت من نفسه ، موقعا غريبا ، قبل أن يفتن بها نعيم • وفى الفصــل الأخير من هذه القصة يترك الشاعر الشيخ متوجها الى مكتبه يسجل يومياته فى دفتره •• ويعلن دهشته هذه ،

والتى سببها موافقته لسيد القصر على أن هنـاك لهبا تتألق على هـذه القمـة •• رغم أنه لا لهب هنـاك ولا نار •

ـ ويستمر الشاعر الشيخ على حاله من العبوس والتفكير (لقد ظهر على وجهه شيء من التردد اضطرب القلم فى يده بعض الاضطراب ثم ثاب اليه هدوؤه ولكنه هدوء مر ، ان صـور شيئا فانما يصـور حسرات ، كانت تمزق قلبه تمزيقا) •

ـ وتنتهى أحداث هذه القصة ، التى لا نعرف ان كانت قد انتهت ـ بالفعل ـ أم أن هنـاك بقيـة لها لم يتمها الدكتور •• فالأرجح كما يذكر الدكتور (محمد حسن الزيات) ـ فى مقدمته لهذا الكتاب ـ ان الدكتور طه حسين قد شغل عن هذه القصة لسبب من الأسـباب شـغله ما كان يهمـه من هموم الأدب والتعليم ، كما شغله عمله وزيرا للمعارف ، اذ تولى هذه الوزارة فى عام ١٩٥٠ ، فعاد الى سياسة ، تكافؤ الفرص ، يسير على هداها فأعلن مجانية التعليم الثانوى

كله والى المطالبة بالعدل الاجتماعى أساسا سليما للمجتمع الصحيح ، السليم ، ولكن الوزارة سقطت فى أول عام ١٩٥٢ م وعادت السلطة الى أيدى من كانوا يخشون أن يؤدى تكافؤ الفرص فى التعليم وغيره الى دك نظام المجتمع المصرى وبقيت فى أيديهم شهورا قليلة ، قامت بعدها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م (١) •

وعلى كل الأحوال سوف تتعرض لهذه القصة على وضعها الحالى •• ــ كما هى ــ لا حاجة بنا الى البحث عن صحة مما يقال : من انها قصة لم تتم بعد أو : انها قد تمت بالفعل •

٣

ــ ما هو الاطار الذى ضمت بداخله أحداث هذه القصة ؟؟ وهل من حقنا أن نطبق عليها معايير النقد بمقاييس القصة ــ بمعناها الواسع •

ان الاطار الذى يضم أحداث هذه القصة ، والتى هى فى جوها العام شبيهة بجو القصة القصيرة ، من

حيث اللحظة المختارة حيث أن حوادثها تتم لحظة دخول الشاعر الشيخ لكى يقابل صديقه • سيد القصر رءوف ، وتنتهى بعد أن تمت هــذه المقابلة ، اذن فالزمـــان • ــ هنا ــ غير ممتد والمكان ــ أيضا ــ غير متعدد ، ولكن عن طريق أسلوب القصة المعتمد على عدة أشياء كالتعليق والتحليل النفسى وأحاديث النفس ــ عن طريق كل هذا ــ تمتد بنا القصة ، فنشعر وكان الزمان قد تغير والمكان قد اختلف ، وأن هناك أحداثا ومواقف تتجدد وكلها ــ فى الحقيقة ــ تنبع من لحظة واحدة يحكمها زمان واحد ومكان واحد •• ولأن أســلوب القصــة • ليس هو هــذا الأســلوب الذى يستخدم ــ عادة ــ فى القصة ــ بوجه عام ــ لاعتمادها أشياء أخرى ــ سوف نوالى ذكرها ــ فلا يحق لنا اذن أن نطبق عليهــا معايير النقد الموضــوعة لهذا النوع من الابداع الأدبى ، حتى لا نظلم الكاتب فى أشياء ــ هو ــ لا يريدها ــ بالطبع ــ ، وســوف يكون منطلق النقد اذن العمل وحده •• مجردا من كل مقاييس أو معايير مسبقة •

أولا ـ موقع قصة ما وراء النهر بين الحكاية والقصة :

ـ القصة هى التى فرضت على هذا السؤال لأنها اعتمدت ـ أوسع ما يكون الاعتماد ـ واتسعت مجالا على أرحب ما يكون المجال على أسلوب الحكاية (الذى يهدف الى الاصلاح والتقويم والتوجيه والسخرية من أشياء والفكاهة اللاذعة ـ بعض الأحيان ـ كما انه يحوى العبرة ويقدم بعضا من الواقع الأليم ، ولكل ما سبق يطغى هذا الأسلوب ٠٠ عليها ليصبح أكثر تأثيرا من أسلوب القصة المعروف والتى لا تعتمد ، على ما سبق ذكره بقدر اعتمادها على رسم الشخصيات فى اطار من الأحداث المتطورة لتصل بنا فى النهاية الى شىء تريد أن تقوله لنا وقد يحمل هذا الأسلوب بعضا من المزايا التى تعمل على انشاء علاقة بين القارىء والمتلقى ـ كما يريد الدكتور العميد ـ وتكون هذه اما مباشرة فى أحيان ، وغير مباشرة فى

---

(١) د. محمد حسن الزيات : مقدمة ما وراء النهر ـ الطبعه الثانية ١٩٧٧ م ـ دار المعارف .

أحيان أخرى .. وما يجعلنا نقرر هذا الأمر ، ما نجده فى هــذه القصــة من تعليق الدكتور (طه حســين) نفسه ــ ككاتب ــ وكأديب وكمفكر ، على شخصــيات القصة واصفا سلوكها ، مستطردا الى استحضار أحداث أو مواقف قد تم حدوثها من قبل ، وهو فى هــذه القصــة ينحو نحو الهدف التعليمى الذى يجعــله ، يستنكر تصرفات بعض شخصيات القصة أو يسخر من تصرفاتها أو يغضب منها وعليها .

ــ فمن ناحيــة استنكاره نرى الدكتور العميــد عندما يتحدث عن الشاعر (الشيخ) يقول : « وهــل حياة الشعراء الا مزاج من الشقاء والرضا ولو خير الشاعر لأختار أن تتصــل خلوته الى النهر أطول وقت ممكن وأن يحتمل من شذوذه واستبداده ، ما شــاء النهر أن يحتمــل .. ولكن الشاعر لم يكن مخيرا فى شىء .. ومتى خير الشعراء وأصحاب الفنون فى شىء ؟؟ انما هم عبيد الطبيعة ، وتفرض عليهم ما فيها من جمال . وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل اليهم أو يخيلون هم الى أنفسهم انهم أحرار يستبطنون من الطبيعة أسرارها ،

ويصوغونها فى صيغهم الفنيــة المــألوفة شعرا أو رسما أو نحتا أو تصويراً » ص ٤٣ ٠

ومن ناحية السخرية من تصرفات الشخصية نضرب هذا المثال :

(ثم أن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصته وحدهم حين يتورط ابنه فى خطيئة من الخطايا ، وانما هو معلن لثورته مشبع لسخطه ، يريد أن يشرك الناس جميعا والأشياء جميعا فيما يجد فهو يتجهم للزائرين ويلقــاهم بوجــه عــابس بغيض ويتحدث اليهم من طرف اللسان ، ومازال يتكلف من ذلك فنونا وفنونا حتى يضطرهم الى أن يسألوه عن أمره ٠٠ فاذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجســام التى يحدثها ابنه الطائش المفتون ٠٠ الخ) ص ٤٠ ٠

ـ ومن ناحية غضبه من الشخصيات نجد :

أولا : غضــبه من سكان الربوة لأنهم (قســاة القلوب ٠ غلاظ الأكباد ، يؤثرون أنفسهم بكل شىء ولا ينزلون عن غيرهن عن شىء) ص ٣٣ ٠

ــ ونجد ثانيا : غضبه على سكان القرية « لأنهم أحرار كالعبيد وعبيد كالأحــرار .. ليسوا راضــين ولا ساخطين لأنهم لا يعرفون الرضا .. ولا السخط ، وانما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم ارادة سادتهم فى القصر) ص ٣٣ .

ــ وهو صحفى وخطيب ــ فى بعض الأحيان ــ وناقد وفيلسوف فى أحيان أخرى .

فهو صحفى لأنه يقوم بتلك « النمذجة الصحفية » كما يقول د. ابراهيم أمام ، على أســاس انتزاع بعض الصفات وتحريرها من سياقها العام » ، ثم ابرازها والقاء الضــوء عليها مع اعطاء مغزى لها يميزها وييسر فهمها ومن الطبيعى ولازال الكلام للدكتور (ابراهيم أمام) أن تقوم هــذه العملية على أساس التضحية بالتفاصيل وعدم الاحتفاظ بالنسب الحقيقية فى الشخصية الأصلية، ومن أجل خلق النموذج المبسط الذى يفهمه الناس (٢)،

(٢) نقلا من مقال د. عبد العزيز شرف ــ فن المقال القصصى فى أدب طه حسين ــ مجلة القصة العدد ١٤ ديسمبر ١٩٧٧ ــ السنة الرابعة ص ٧ .

ولعل فى هذه الرؤية تفسير لقول الدكتور طه حسين ..
(ولست أخفى على القارىء انى حائر أشـد الحيرة
فى أمر هـذا الفتى ، كما انى حائر أشد الحيرة فى أمر
أهل الربوة جميعا ، فكلهم يلح على فى أن أجـد له
اسما يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس وكلهم على
فى أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم الا اذا عرفت
اسماؤهم التى تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من
هذا الوجود الوهمى الذىيشبه العدم..الخ) ص ٤٤ .

ـ وهو خطيب عنـدما يرتفع صـوته بالوعظ
والارشاد والقاء العبرة . وهو ناقد فيلسوف يتدخل فى
أغلب الأحيان ليقطع مسار الأحداث ليضـع تعليقـا
موجها الى القارىء بطريق مباشر ، ولعل هذا ما يفسره
قوله : (فليست القصة حكاية للأحداث وسردا للوقائع
كما استقر على ذلك عرف النقاد .. وانما القصة فقه
لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف) ص ٣٠ .

وقوله : (وأهـدى الى كل واحد اسـما يميزه
ويمنحه حظه من الوجود الذى يطمح فيه ويطمح اليه ،

وان كان الوجود فى نفسه ليس شيئا يستحق الطمع فيه أو الطموح اليه) .

وقوله : (ولكن ارسطاطاليس قد أخطأ تعريف الانسان حين قال : انه حيوان ناطق ، ولو وفق الى الصواب لقال انه حيوان أحمق ، وليس أدل على حمقه فى طمعه فى الوجود وطموحه اليه وحبه للحياة) ص ٤٧ .

وقوله : (فالحياة لا تحب الناس الا حين يعملون لكسب حبها وهى لا تحتقر الذين يعيشون عيالا على غيرهم) ص ٨٦ .

من كل ما سبق يتضح لنا غلبة أسلوب الحكاية على الأسلوب القصصى بمعناه الواسع ولو أن هذا الأمر لا يخفى أن الدكتور الأديب قد التزم فى بعض المواقف بما فرضه عليه أسلوب القصة من استخدام .

١ ـ فنجد ـ لديه ـ الحوار الممتع الأسلوب .

قال الشاعر الشيخ « عم صباحا يا عثمان ، فى المكتب ؟ ماذا سيصنع سيدك فى المكتب ؟ أيسكن أن يعيش الناس تحت السقوف » وبين الجدران حين تصفو

السماء وتتألق الشمس وتزين الأرض ويتهادى النهر على هذا النحو ! دعه فى المكتب يا عثمان ولا تأذنه بمكانى ألا أن يسألك ولكن أرسل الى القهوة ، قدحين لا قدحا واحدا ، وقف على ابراهيم حتى يتقنها ، فأنت تعرف القهوة التى أحب .. الخ الحوار) ص ٣٤ .

٢ ــ ونجد بلاغة التصــوير الواقعى .

يصف محمود الاسكاف وهو جالس الى عمــله قائلا : (وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكلتا يديه يشدها الى يمين ويشدها الى يسار ، وقد يضــع طرفا من أطرافها فى فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لايريد قضما ولا التهاما ، وانما يريد أن يمتحن متانة الجلد ، فهو يمسك طرفا منه بما بقى من أسنانه ، ويمســك طرفيه الآخرين بيديه وهو يشد الى هذه الجهة والى تلك يستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه النعل أو تلك) ص ٦٥ .

٣ ــ ونجد الصورة التى هى أقرب الى اللوحــة التشكيلية منها الى أى شىء آخر :

-- وصندوقا صغيرا قد وضع فى زاوية من زواياه،
وجماعة من هـذا الخبز العريض الرقيق المستدير قد
رص بعضها على بعض وارتفعت فى زاوية من زوايـا
الحجرة كأنها العمود ، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن
تطعم ، ومازال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضائل ،
حتى اذا دنا من الأرض عملت محبوبة صاحبـة الدار
على تجديده ورفعه ، فكان اعداد الذرة واشعال الفرن
الى جانب المصطبة التى يعمل عليها الشيخ وانطـلاق
الدخان ، ويضطر الشيخ فى ذلك اليوم الى أن يأخذ
جلده ونعاله وأدواته ويجلس بهـا على الأرض أمام
الدار .. الخ) ص ٦٦ .

٤ ـ ونجد بساطةالشخصيات ، رغم أننا نأخذ عليه
عدم تعميقها حتى بدت بعضها سطحية التكوين مهتزة
البناء .. كشخصية (خديجة) ـ مثلا ـ كذلك أمها
(محبوبة) التى لا نعرف عنها شيئا .. ورغم هـذا
فان بساطة الشخصـيات قد جاءت نتيجة لعدة أمور .
منهـا :

١ ـ الكشف الداخلى للشخصية عن طريق المناجاة .. (حديث النفس) :

ـ نجد الشاعر الشيخ يتناجى (لقد كنت فى تلك الأيام ـ لا ردها الله بائسا ممعنا فى البؤس ، شقيا مغرقا فى الشقاء ، بارعا فى كل شىء الا فيما يوفر على حياة هنية وادعة ، لا أجد فيها الجوع فى أكثر أيام الأسبوع ولا أتعرض فيها لذلك الخزى الذى أذكره الآن ، فتدور بى هذه الحجرة وأود لو كنت نسيا منسيا .. لقد كنت أغدو من غرفتى تلك الحقيرة حين يرتفع الضحى ، مقفر النفس فارغ الجيب .. صفر اليدين لا أجد من المال أيسر ما يتيح لى أن أجيب ما يقيم الأود .. الخ) ص ٧٩ .

٢ ـ الاعتراف وهو فى قصة ما وراء النهر ذو وجهين :

ـ الأول ـ الاعتراف الشخصى .

الثانى ـ الاعتراف عن الغير .

(أ) بالنسبة للجانب الأول وهو « الاعتراف

الشخصى » فنقصد به اعتراف الشخصية عن شيء فعلته.
وهذا ما نجده عند رءوف سيد القصر عندما يعترف الى
الشاعر الشيخ بان الفتاة التى أغر بها ولده قد وقعت
فى نفسه — هو الآخر — موقعا غريبا .. يقول :

— قال الشاعر الشيخ : وفى القصة اذن شيء غير
ما علمت ؟؟ قال رءوف نعم .. ان هـذه الفتـاة كانت
قد وقعت من نفسى موقعا غريبا ، قبل أن يفتن بهـا
نعيم ص ١٠٨ .

(ب) بالنسبة للجانب الآخر وهو الاعتراف عن
الغير فيقصد به أن تعترف شخصـية حاضرة عن شيء
تخفيه شخصية أخرى — ســواء كانت هـذه حاضرة
أو غائبة : وهذا ما نجده عندما يثور نعيم متحدثا الى
الشاعر قائلا :

« انك رفيق أبى منذ صباه وشريـكه فى هزله
وجده ، فهل تعلم أنه لقى من أبيه مثل ما ألقى منه ؟
وهل تعلم أنه وفق تماما لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟؟
أم هل تعلم أنه كغيره من الناس له فى أثناء شـبابه

وجد وأسرف على نفسه وعلى أسرته فى اللهو أحيانا ، فانكروا عليه فى رفق ونصحوا له فى حب ، ووجهوه الى الخير ما استطاعوا الى ذلك سبيلا وأكاد أقطع بانهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئا » ص ٥٢ •

٣ ـ التحليل النفسى :

وقد كان الدكتور طه حسين مولعا به ، حيث أن وجوده فى باريس قد ترك فى نفسه أثرا ـ عندما اطلع على كتابات الأدباء ـ هناك ـ من أمثال (رومان كولس ـ كورنى ـ راسين ـ فولتير ـ الفريد كابور) فتأثر بهم مما دفعه الى مسألة التحليل النفسى هذه التى تتضح عنده أكثر فى مجموعة الحب الضائع ، وتتضح عنده ـ كذلك ـ فى هذه القصة •• حيث نجد رءوف سيد القصر • الثرى ـ فى آخر القصة ـ وقد تحطمت نفسه بعد ما تخلص من زوجه بالطلاق وبعد ما طرد ابنه ، وعلم أن خديجة ابنة (محمود الاسكاف) قد قتلها أخوها « أحمد » انتقاما لشرف أسرته ، بعد ما غرر بها ابنه الفتى المدلل ، وفى

نفس الوقت فان هــذه الفتــاة قد وقعت فى نفســه هو — من قبل — كما يعترف موقعا غريبا .. كل هذه الأسباب — مجتمعة — عملت على تعقد الأمور أمامه وحوله وخلفه ، مما جعله يهتز نفسيا ، وقد بدا هــذا الاهتزاز النفسى يظهر فى سلوكه وتفكيره اذ يتخيل أن هناك على القمم البعيدة نارا مشتعلة لا يعرف ولا يتذكر من أين جاءت .. وهــذه النار — فى حقيقة الأمر — وهم نتاج هــذه الحالة النفسية التى يعرضها علينــا العميد ، معللا أســباب ودواعى هذه التصرفات التى تجعل صديقه الشاعر الشيخ يصرح بأن صديقه (قد ألم به طائف من جنون) ص ١١٠ .

— لكن الأمور السابق التعرض اليها من كشف داخلى للشخصــية واعتراف بجانبيــه (الشخصى وعن الغير) والتحليل النفسى .. كل هــذه الأمور جعلت الشخصية فى القصة بسيطة فى عرضها .. مقنعــة فى تصرفاتها ، فنحن — مع قله هذه الشخصيات — نجد تعدد التناول أو بمعنى آخر نجد تمايز الشخصيات .. فهناك رءوسف سيد القصر ، شخصية أنانية ، (تقرأ فى

هاتين العينين الأثرة فى أبشع صورها ، وفى أطرف صورها ــ أيضا ــ وهذه القراءة لا تكذبك ولا تغرك عن الحقيقة الواقعة فصاحبنا أثر كأبشع ما تكون الأثرة ، وكأظرف ما تكون الأثرة فى وقت واحد .. فنجده يتخلص من زوجته (بالطلاق) ويتخلص من ابنه بالطرد بسبب حب هذا الابن لهذه الفتاة البائسة (خديجة) ورغبته الصادقة فى الزواج بها وهو ليس غاضب فيما يبدو لأن ابنه يخالفه وسوف يتزوج بنتا من بنات القرية .. فقيرة .. حقيرة .. ولكنه غاضب لأنه قد أحب ، نفس هذه الفتاة من قبل .. أبعد هذا أنانية وأثرة ؟؟

ــ ونجد الابن الفتى « نعيم » شخصية متمردة على واقعها ، رغم ثراء والده ، ورغم النعيم الذى يعيش فيه ، نراه رغم كل هذا يقرر انه طالما أحب هذه الفتاة « خديجة » وأغر بها فلابد أن يتزوجها مهما كلفه هذا الأمر من عناء ، فهو متمرد على أبيه ، متمرد على الطبقة التى ينتمى اليها ، طبقة الأغنياء .. يحاول أن يصلح ما أفسده ، يقول ثائرا وهو يتحدث الى الشاعر

الشيخ : (حدثني عما تقدمون من الخير والبر ، الى أهل القرية حين تسخرونهم فى غير رفق ولا لين وفى غير محبة ولا مودة وفى غير انصاف ولا عدل لمنافعكم وحين تستأثرون من دونهم بثمرة ما يبذلون من جهد ويحتملون من عناء ، ان أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها الا فقرا وبؤسا وحرمانا) ص ٥٥ .

ـ ونجد (أحمد) شخصية ـ رغم أنها ثانوية ـ الا أنها قد أدت دورا فى هذه القصة ، نجده يعيش وجوده بشيء واحد هو الشرف ، ولو فقده فلا قيمة بعد ذلك لهذا الوجود .. نراه يقتل أخته (خديجة) على الرغم من انه يحبها حبا عظيما !! لأنها لم تحافظ على سبب الوجود .. ونجد الشخصية المنافقة ، الانتهازية متمثلة فى « الشاعر الشيخ » فهو يدفع بصديقه الى الوقوع فى الخطأ ، لو علم ان هذا الأمر فيه ارضاء لنفس هذا الصديق ، ويحدثه بمعسول الكلام وهو فى داخل نفسه يحتقر هذا الصديق فى سلوكه وتصرفاته .. ولا يستطيع أن يواجهه لأنه يخاف

أن يفقد مكانه فى الراحة والهناء بجوار هـذا القصر الفخم الضخم •• فهو ــ اذن ــ شخصية منافقة •• انتهازية السلوك •• (لقد رضيت اخلاقه على علاتها فانا اتجنب غضبه وأتلمس رضاه ، لأنى أجد فى ذلك راحة وروحا ولونا من ألوان السـعادة ، لا أحب أن أصرفه عن نفسى ولا أحب أن يصرفه عنى صارف ، وأنا من أجل ذلك أحب الكذب حين يتيح لى اشراق نفسه ووجهـه ، وأكره الصـدق حين يعرضنى لغضبه على أو أزوراره) ص ٨٣ •

ــ ونجد الى جانب الشخصيات السابقة شخصية « محمود الاسكاف » وامرأته « محبوبة » وكل منهما يمثل الشخصـية السلبية العاجزة فلم يتخـذ أى منهم موقفا ما تجاه ابنتهما « خديجة » على الرغم من علمهما بهذه العلاقة التى تربط الفتى سيد القصر « بخديجة »•

يتبين لنا من كل ما سبق أن الدكتور (طه حسين) قد عرض لنا نماذج متنوعة للشخصية ، ان دلت على شىء ، فانمـا تدل على ذكاء الكاتب فى التقـاط تلك السمات التى تتصف بها الشخصـية المصرية ويبلور

وجودها فى الواقع الحى الذى كانت تحياه تحت الظلم والبؤس ، والقهر والاستعباد ، وهو من وراء كل هذا يبحث عن الاصلاح الاجتماعى ويدعو له .

ومما سبق عرضه وانهاء لرأينا فى مسألة موقع هذه القصة ، بين الحكاية والقصة . يتضح لنا أنها اكتسبت من كلا الاطارين أسلوبا لها .. لا يهمه فى ذلك أى الطريقين يسلك ولكن المهم عنده قيمة ما يوصله الينا ـ نحن المتلقين ـ وهذا أمر قد تحقق بالفعل ولكنه يجعلنا نفكر فى شىء آخر وهو :

ثانيا ـ هل يمكن أن نعتبر هذه القصة متافيزيقية لا ترتبط بمكان أو زمان ؟؟

ـ ما جعلنا نظن هذا الظن ـ وقد يكون بعيدا عن الصحة ـ ما نراه فى هذه القصة من عدم تقديم دلالة مباشرة للأشياء . فى بعض الأحيان ـ وانما هى دلالة أشبه بدلالة الغيبيات ، وبها تتردد النفس بين آفاق بعضها حلو وجميل نتيجة لما فسر من انفعالات ، وبعضها غامض ومعتم .. كل هذه الأسباب هى التى أحالتنى الى هذا الظن ، والرأى الأصوب ان هذا

ظن لا يقع موقع اليقين على طول القصة والا لتعارض هـذا بالطبع ـ مع المضمون الذى ينبغى على االقصة أن تحمله وتوصله لا أن تكون منفصلة عن السـياق الاجتماعى أو الواقع السياسى ، الذى يحكم وجود هؤلاء الناس الذين جاءوا أو حضروا فى هـذا العمل • حضورا واقعيا !! خاصة وأن الواقع الذى كانت تعيشه مصر فى زمن كتابة هذه القصة ـ وهو واقع سنة ١٩٤٦ كان واقعـا يتطـلب عدة تصـورات بهـا يطمح كتاب ـ المرحلة ـ أن تتغير الظروف القائمة ، وهـذه هى مهمة الفن فى اعتقادنا وهـذا ما يجعلنا نحس كتاب الدكتور طه حسين « المعذبون فى الأرض » بل ونعيشه بمشـاعرنا ـ على الرغم من المبـاشرة التى جاءت فى الكتاب ، ونعتبره ـ كذلك ـ تصورا ثوريا لمـا يجب أن يكون ، وتتيجة منطقية لمـا هو كائن •

ـ ولكن قصة (ما وراء النهر) لو وضعت على خارطة الواقع المصرى ، فى تلك الفترة لوجدنا انها لم تتناول ـ منه الا جزءا صغيرا فقط رغم انها تتنـاول هذه العلاقـة التى تربط ما بين الفقراء والأغنيـاء •

الا انها قد تناولتها فى حدود ضيقة انحصرت فقط فى مطلق من المطلقــات وهو (الشرف) دون أن تعمق الخلفية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كانت تحكم تصرفات هؤلاء الناس بتفاوتهم الطبقى • ولكن أهم شيء طرحته هــذه القصة ــ فى النهاية ــ هو هذا الحــذر الذى يجب أن يتخذه الأغنيــاء من الفقراء المعذبين • انهم يحسون أن هؤلاء الفقراء المعذبين سوف يبحثون عن طريق للخلاص من هذا الذل الذى يعيشون فيه والهوان الذى يحيون معه •• يقول سيد القصر :

(وهبت على هؤلاء البائســين من أهل القريــة وأمثالهم ريح لا أدرى من أين جاءتهم ولكنها حملت اليهم شرا عظيمــا •• علمتهم ان لهم شرفا ، وانهــم يستطيعون أن يغضبوا لهذا الشرف وأن يسفكوا فى سبيله الدم ويتعرضــوا فى ســبيله للموت) ثم يقول بعد ذلك :

(ولن أدهش اذا انبئت غدا ، أو بعد غــد بان هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، ويرون ان لهم فى أنفسهم حقوقا يدافعون عنها) ص١٠٠ •

ـ اذن هي الثورة .. الثورة من أجل الخلاص..
وهذا العمل ـ وبهذه الحدود ـ يعتبر تصورا ثوريا على هـذا الظلم وهـذا الطغيان الذى معه يضيع الشرف .

اذن ما هو هـذا الشيء الذى يوجد (ما وراء النهر) ؟ انه الخلاص

الخلاص لكلا الطرفين .. الأغنياء والفقراء .. الأغنياء يبحثون عن مأمن لهم من غضب هؤلاء البؤساء الذين يعـذبونهم ، ويعيشـون بشرفهم وكرامتهـم ، والفقراء يبحثون عن اللحظـة المواتية التى يستطيعون فيها مواجهـة الطغمة المتسلطة .. لكى يرجع الحـق المنهوب والكرامة المهدرة والشرف المسلوب .

ـ وهـذا الأمر ليس تأليبا طبقيـا بين هـؤلاء وهؤلاء .. ولكنه عامل يقظة من أجل احداث « الفعل » بالتغيير ، ومن أجل تثبيت دعائم الاصلاح الاجتماعى .

اذن ما وراء النهر هو الأمل فى هـذا الاصـلاح الذى يطلبه طه حسين من أجل المجتمع ككل .

المراجـــع :

– العدالة والحرية فى فجر النهضـــة العربيـــة الحديثة – د. عزت قرنى .

– عالم المعرفـــة – يونيو ١٩٨٠ م العدد ٣٠ .

– فصول فى الأدب والنقد – د. طه حسين – دار المعارف – مصر .

– مع طه حســـين – سامى الكيالى – سلسلة اقرأ – دار المعارف – مصر .

– جنة الشوك – طه حسين – دار المعارف .

– ثقافتنا بين الأصـــالة والمعـــاصرة – جـــلال العشرى – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

– فى الأدب الجـــاهلى – طه حســـين – دار المعارف – مصر .

– أدباء معاصرون – رجاء النقاش .

– التفـكير العلمى – د. فؤاد زكريا – عـــالم المعرفة – الكويت – العدد ٣ .

- ألوان — طه حسين — دار المعارف .

- مع أبى العلاء فى سجنه — طه حسين — دار المعارف — مصر .

دوريـــات :

١ — مجلة الثقافة — العدد رقم ١٤ /٢ .

٢ — مجـلة القصـة — العـدد ١٤ ديسمبر ٧٧ السنة الرابعة .

٣ — صحيفـــة الأهـــرام فى ١٩٨٥/٢/٢٥ و ١٩٨٣/١٢/٩ م .

الفهـــرس

رقم الايداع ٨٨/٨١٤٤
الترقيم الدولى × ـ ٢٠١٢ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب